الفصل الثانى
الفتح الإسلامى للسند والبنجاب

* علاقات شبه القارة الهندية ببلاد العرب قبل الإسلام.
* المحاولات الأولى للفتح زمن الخلفاء الراشدين.
* الحملات الإسلامية فى العصر الأموى.
* محمد بن القاسم يفتح بلاد السند والبنجاب.
* انتشار الإسلام فى السند والبنجاب.

Orekandl.com

obeikandl.com

علاقات شبه القارة الهندية بلاد العرب قبل الاسم

انقسمت شبه القارة الهندية فى القديم إلى قسمين جغرافيين كبيرتين هما بلاد السند والبنجاب وبلاد الهند، وتضرب هذه البلاد بجذورها فى أعماق التاريخ، فهى من البلاد ذات الحضارات القديمة بل الموغلة فى القدم.

وقد دلت الحفريات والكشوف الأثرية التى قامت بها بعثة مارشال سنة ١٩٢٢ والتى أسفرت عن العثور على مدينين قديمتين بغرب بلاد السند هما "مهنجوذارو" و"هربا" دلت على وجود حضارة هندية يرجع تاريخها إلى عصر بناة الأهرام، وتمتد فى أغوار الزمان – مثلما تمتد الحضارة اليونانية والعراقية – إلى آلاف السنين قبل ميلاد المسيح، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

ويفصل البحر بلاد الهند هذه عن الجزيرة، ولهذا كان من الطبيعى أن يكون البحر هو أول حلقة اتصال بين بلاد العرب من ناحية وبلاد الهند والسند من ناحية أخرى، وقد قامت الصلات التجارية بين الجانبين منذ آلاف السنين قبل الميلاد، فكانت القوافل تأتى بتجارتها إلى بلاد الهند. بل استقر بعض العرب فى مناطقها الساحلية واندمجوا فى أهلها، كما حمل العرب منتجات شبه القارة الهندية، وثمارها إلى بلادهم الأصلية، بل حملوها إلى أوروبا عن طريق مصر وبلاد الشام ونقلوا التجارات الأوربية والعربية إلى الهند والصين، بل ذهب البعض إلى أن الروابط العربية الهندية ترجع إلى زمن سيدنا سليمان – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – فقد كان يستورد الذهب والفضة والعاج والطواويس من بلاد الهند.

وعندما فتح المسلمون بلاد فارس واستقروا بها، استمرت العلاقات بين بلاد السند وبين الجزيرة العربية عن طريق بلاد فارس، ويذكر المسعودى أن القافل التجارية كانت متصلة بين خراسان وبين الملتان بإقليم البنجاب وبينها وبين المنصورة بإقليم السند، ونص عبارته "وبلاد الهند متصل ببلاد خراسان" والسند مما يلى

بلاد المنصورة والملقان والقوافل متصلة من السند إلى خراسان وكذلك إلى الهند ويذكر ابن الفقيه فى كتابه "البلدان" أن البضائع الإيرانية كانت تصل إلى بلاد السند من خراسان فمن أراد السند أخذ من ناحية فارس على سيراف "ويقول" الاصطخرى" فى المسالك والممالك" أن البل السندية ذات السنامين كانت تصدر إلى خراسان وفارس وغيرها" هذا الفالج (الجمل ذو السنامين) الذى يحمل إلى الأفاق بخراسان وفارس وسائر البلاد التى يكون بها البخاتى إنما يحمل منهم.

لقد كانت التجارة العربية مع الهند تسير برا من مصر والشام على ساحل البحر الأحمر إلى اليمن، ثم تبدأ الرحلة البحرية عن طريق حضر موت وعمان والبحرين إلى كراتشى، أو عن طريق المحيط الهندى إلى موانى الهند، ولما جاء الإسلام استمرت صلة الهند قوى بالعرب، وهناك كلمات من اللغة الهندية موجودة فى القرآن الكريم مثل مسك وزنجبيل وكافور، وقد أهدى بعض ملوك الهند للرسول ﷺ، جرة فيها زنجبيل فأطعم ﷺ أصحابه منها.

ولأن نشاط العرب نشاط تجارى، فإن لنا أن نتوقع أن يقتصر اتصالهم على السواحل الهندية التى كانوا يعرفونها جيدا، ويعرفون المدن الواقعة على الساحل الطويل لبحر العرب، كما كانوا ينطلقون من هذه البلاد إلى ما وراءها، فيذهبون إلى خليج البنغال وبلاد الملايو وجزر أندونسيا.

وقد بقيت بعض الموانى الهندية التى اشتهرت منذ العهد العربى محتفظة بأسمائها حتى الآن مثل ميناء تيز بإقليم مكران، وميناء الديبل ببلاد السند، وميناء تانة (تهانه) وكهمبانت وسوبارة وجيجو فى إقليم كجران ببلاد الهند، ومن هذه الموانى كانت سفن التجار العرب تتجه إلى ميناء البنغال وموانى الجزر الهندية وميناء القامرون (كامروب)، وتستمر فى سيرها حتى تصل إلى بلاد الصين، وقد ذكر الجغرافيون العرب هذه الموانى ووصفوها فى كتبهم.

وفكرة العرب عن الهند أنها بلاد وافرة الغنى والثراء "بحرها در وجبالها ياقوت وشجرها عطر" حسب وصف واحد من الأعراب وقد استورد العرب من

الهند الأقمشة والعاج والذهب والفضة والعملات الذهبية، وأنواع التوابل والسكر والأرز والمسك وجوز الهند وغيرها" وقد تبارز المقاتلون بسيوف الهند البتارة، وتعطرت النساء بعطورها ورفلن فى حريرها وازين بلآلئها، وازدحمت الجموع حول الملاعب ليشاهدوا نمور الهند وفيلها فى المعترك" وصدر العرب لبلاد الهند الجلد المصبوغ والدقيق وتمر البصرة وخمرة العراق، والزمر من مصر، والخيول العربية الأصلية، والعود الذى كان يستخدم فى المعابد السندية.. على غير ذلك.

باختصار كانت هناك علاقات تجارية بين العرب وبين سكان الهند والسند منذ آلاف السنين، وقد أقام بعض التجار العرب فى الموانى والمدن الساحلية الهندية واستوطنت جاليات عربية هناك قبل الفتح الإسلامى لهذه البلاد، كذلك كان هناك هنود أقاموا بين العرب وأخذوا عنهم لغاتهم وتعلموا لسانهم، وعرفوا بينهم واشتهروا بألقابهم مثل الزط والميد والتكاكرة.. إلخ.

الهدف من السطور السابقة بيان وجود علاقات متينة بين الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية، وأن العرب قد عرفوا هذه البلاد ومارسوا التجارة معها واستقر التجارة معها واستقر بعضهم فيها خاصة على سواحلها، فإذا أدركنا ذلك ووضعنا فى الاعتبار طيعة الرسالة الإسلامية وأنها دعوة عامة أرسل الله بها محمدا ﷺ، للناس كافة، مصداقا لقوله عز وجل «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» "الأنبياء: ١٠٧"، «قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا»، وقول النبى ﷺ - "كان النبى يبعث لقومه خاصة وبعثت للناس عامة، إذا عرفنا ذلك واستحضرنا ما قام من علاقات بين الشعبين قبل الإسلام، تصونا أنه كان من الطبيعى أن يفكر المسلمون فى تبليغ كلمة الله إلى سكان هذه المناطق.

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن هو:

هل ترجع محاولات تبليغ الدعوة الإسلامية لسكان شبه القارة الهندية إلى زمن رسول الله ﷺ؟

الواقع أننا أمام روايتين: الأولى منهما تقول إن النبى ﷺ أوفد رسله إلى الملوك والحكام فى زمنه، وأرسل بعض أصحابه إلى "سرباتك" حاكم "قنوج" بالهند وأن هذا قد أسلم على أيدى هؤلاء الصحابة، ولكن الحافظ "ابن حجر" يضعف هذه الرواية، ويعلق عليها بقوله: "زعم أن النبى أنفذ إليه حذيفة وأسامة وصهيبا يدعونه إلى الإسلام، فأجاب وأسلم وقبل كتاب النبى ﷺ، وقد قال الذهبى فى تجريد أسماء الصحابة، إن هذه الرواية كذب واضح.

أما الرواية الثانية: فتذكر أن خمسة من الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين قد وصلوا إلى بلاد السند، وإن اثنين منهم رجعا وبقى ثلاثة، وتضيف أن النبى ﷺ قد أرسل كتابه إلى أهل السند مع هؤلاء الخمسة وأنهم لما جاءوا إلى هذه البلاد نزلوا فى قلعة يقال لها "نيرون" ثم رجع اثنان بعد أن أظهر أهل السند الإسلام وبقى الثلاثة هناك يبينون لهم الحكام حتى ماتوا بتلك البلاد.

والقواقع أن الكتاب الذى وردت فيه هذه الرسالة غير معروف وقد استبعدها تماما الإمام السيوطى.

ومن هنا لا يمكن الاطمئنان إلى وصول صحابة يحملون دعوة الإسلام إلى شبه القارة الهندية زمن رسول الله ﷺ.

وعندما تولى الخلافة أبو بكر الخلافة أبو بكر الصديق رضى الله عنه، أقر أبا العلاء الحضرمى على ولاية البحرين، أحد مراكز التجارة العربيةم الهند والصين، ولما آلت الخلافة إلى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - جعل أبا هريرة واليا على هذه البلاد، فلما كانت سنة ١٥ هجرية أسند منطقة البحرين إلى عثمان بن أبى العاص الثقفى، وكان عثمان هذا قد اسلم فى السنة التاسعة من الهجرة وعندما وقف أمام رسول الله ﷺ مع وفد ثقيف الطائف، لمس فيه النبى ما يتمتع به من مميزات فأقره حاكما على الطائف وبقى كذلك حتى جاء عمر - رضى الله عنه فنقله من ولايته وولاه عمان والبحرين سنة ١٥هـ، والثابت أنه أول من طرق الهند من ثلاث جهات.

١ - فى عهد الخلفاء الراشدين

قام عثمان بن أبى العاص الثقفى والى عمان والبحرين بإعداد ثلاث حملات بحرية، وقد تولى بنفسه قيادة واحدة منها اتجهت إلى ناحية "تهامه" عاصمة أحدى محافظات ولاية مهاشترا الجديدة الآن، وتقع على بعد ٣٢ميلا من مدينة "بومباى" الحالية، بينما توجهت الثانية يقودها أخوه الحكم بن أبى العاص الثقفى نحو ميناء "بهروج" على الساحل الهندى شمال إقليم "سورت" ببلاد الهند الحالية، أما الثالثة فقد تولى أمرها أخ ثالث اسمه "المغيرة بن أبى العاص الثقفى، ويممت شطر "الديبل" الذى يغلب على ظن المتخصصين أنها كانت ميناء، موقعه قرب ميناء "كراتشى" الحالى فى جمهورية باكستان.

وكان الهدف من هذه الحملات الإعداد لفتح تلك المناطق، وتأديب قراصنة الهند والسند الذين كانوا يغيرون على السفن التجارية وينهبون ما تحملع من بضائع، ويتخذون من موانيهم قواعد لمهاجمة بعض مناطق الدولة الإسلامية فى الخليج العربى، بالإضافة إلى محاولة معرفة بلاد السند واختبار طاقة القوة العربية والتوصل إلى أى مدى يمكن الاعتماد عليها فى فتح هذه البلاد مستقبلا، وأيضا أراد المسلمون تأديب ملك السند انتقاما لما حدث منه أثناء معركة القادسية سنة ١٦هـ = ٦٣٧م، عندما زود ملك الفرس بالمال وبالسلاح وأعانه فى حربه مع المسلمين وتأديب بعض المرتدين ومن أيدهم من رجال القبائل الدين هربوا إلى هذه البلاد بعد فشل حركتهم زمن الصديق رضى الله عنه.

ويبدو أن هذه لم تكن حملات منظمة هدفها الاستقرار، وإنما هى حملات أوليه أقرب إلى فريق استطلاعية هدفها الاستكشاف والتعرف وجمع المعلومات عن هذه البلاد، وقد اعتمدت على المتطوعين من المسلمين ذوى الأصل الهندى خاصة، ولعل من بينهم قبائل (الزط) المعروفين بالمهارة فى التجارة والزراعة،

والذين يقال أن على بن أبى طالب استخدمهم لحراسة أموال البصرة فى موقعة الجمل، وشاركوا فى حماية ثغور الشام بعد ذلك زمن الأمويين ثم وطنهم الحجاج فى سهول العراق بهدف استصلاح بطائحها وزراعته، واشتركوا بعد ذلك فى فتح البلاد وعلى حال فهذه الحملات لم تزد عن أن تكون مناوشات، لم تصل إلى مستوى الحرب بمعناها المعروف، ولعل هذا هو سر عودة هذه القوات إلى قواعد انطلاقها فى عمان بعد أن تمكنت من تحقيق مهمتها.

وبمجرد عودة قوات هذه الحملات، ورجوع المجاهدين، كتب الوالى إلى الخليفة يشرح له ما حدث وما تحقق من نتائج، فلم يبد الخليفة رضى الله عنه ارتياحا لهذه العمل، لأنه لا يتصور أن يقوم الوالى بكل ذلك دون إذن الخليفة وبغير تشاور مع السلطة المركزية فى المدينة المنورة، ذلك أن الدولة الإسلامية لم تكن كونت قوة بحرية منظمة تستطيع التعامل مع الدول ذات القدم الراسخة فى هذا المجال، ثم إن القوات الإسلامية كانت مشغولة بالقتال على جبهتى الفرس والروم فى ذلك الوقت ولم يكن من المصلحة فتح جبهة جديدة دون اتخاذ الأهمية والعدة لذلك،ـ خاصة إذا كانت الجبهة واسعة وبعيدة عن الجزيرة العربية مثل بلاد السند والهند، إن هذا يمثل نوعا من المغامرة وتعريض الجند الإسلامى للخطر بصورة لا يرضى عنها أمير المؤمنين ولعل هذا هو السر وراء توعده للوالى نفسه عندما أبلغه أبناء هذه الحملات، لقد قال له غاضبا "يا أخا ثقيف حملت دودا على عود، وغنى أحلف بالله لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم" وبرغم ذلك فإن احتكار السفن العربية بقيادة المغيرة مع البحرية الهندية قبالة "الديبل" كان له أثره فى ظهور ثم فى نمو البحرية الإسلامية، إن انتصار المسلمين هنا أشبه بنصرهم فى حوض البحر المتوسط، بموقعة ذات الصوارى وما تم فى عهد عمر كان غارات خاطفة تمهد لتطور كبير.

وكان لابد من مرور سنتين أذن الخليفة بعدهما بتجهيز قوات برية لا بحرية لفتح إقليم مكران غرب بلوجستان ببلاد السند، وإقليم كرمان الفارسى الذى يقع

على حدود فارس مع بلاد السند، وكانت السند وتتبعها مكران إمارة مستقلة يحكمها ملك بوذى اسمه "هراش" وقد جعل الخليفة قيادة الجيش الأول للحكم بن عمرو التغلبى، وقيادة الجيش الثانى لسهيل بن عدى، وقد أخذت هذه القوات تواصل استعدادها ويزودها الخليفة بما تحتاج إليه من جند وقادة بحيث أيتح لها أن تبدأ مهمتها فى سنة ٢٢هـ، ٦٤٢م، وقد نجحت فى الوصول إلى كرمان ببلاد العجم وتم فتحها.

وفى سنة ٢٣هـ = ٦٤٣م وقد نجحت فى الوصول إلى كرمان وصلت طلائع جيش الحكم بن عمروا التغلبى إلى إقليم مكران وزوده الخليفة رضى الله عنه بثلاثة قواد أخرين وبعد فتح مكران توغل الجميع فى بلاد السند إلى أن اقتربوا من نهر السند.

أما أهل مكران فقد عسكروا على شاطئ نهر السند حيث أمدهم ملك البلاد بقوات هائلة جعل قيادة عليها لحاكم من أبرز حكام الولايات عنده اسمه "راسل" وقد عبر هذا بقواته النهر والتقى مع جند المسلمين فى معركة حامية كانت نتيجتها انتصار المسلمين، وقد قتل القائد السندى ومعظم قواده وتقهقرت قواته وتبعهم المسلمين حتى نهر السند أو نهر "مهران" فى إقليم السند وتولى أمر البلاد بعد هذه الهزيمة وزير الملك البرهمى، واستمر يحكمها مدة أربعين سنة، ولما هلم تولى شئون الحكم ابنه "داهر" أخر أمراء السند الذى هزمه المسلمون وتم لهم فتح بلاده بعد ذلك.

أما فى هذه المرحلة فقد صدر أمر الخليفة بأن تعود الجيوش الإسلامية إلى مكران فقد كان رضى الله عنه يخشى أن يستدرجوهم ويتوغلوا فى عمق بلاد لا يعرفونها حق المعرفة، لما يمثله ذلك من خطورة على المسلمين، فكان أمره صريحا بألا يعبر أحد إلى الضفة الشرقية من نهر السند، وقال لقائديه: الحكم وسهيل "لا يجوزن مكران أحد من جنودكما، واقتصرا على ما دون النهر، وأمر ببيع الفيلة بأرض الإسلام، وقسم أثمانها على من أفادها الله عليه. فعادت الجيوش لتستقر

فى مكران واستمر الحال هكذا فلم يحاول المسلمون التقدم أو فتح مناطق جديدة حتى نهاية عصر عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

وفى عهد الخليفة الثالث عثمان رضوان الله عليه، يبدو أن قادة المسلمين ألحوا عليه وطالبوه بأن يأذن بالتوغل بالجند الإسلامى وتعريضه لمخاطر فى مناطق واسعة وبعيدة لم تكتمل للمسلمين معرفة طبيعتها بعد، وقد رغب أن يحتاط للأمر، فكتب لواليه على بلاد العراق عبد الله بن عامر وكانت بلاد فارس تتبعه، أن يواجه إلى إقليم السند من يراه ويصفه للخليفة بعد معاينة ومباشرة" بحيث يعلم علمه وينصرف إليه بخبره فعهد الوالى بهذه المهمة إلى "حكيم بن جبلة العبدى" الذى ذهب إلى هذه البلاد ودرس أحوالها وجمع معلومات عنها، ورجع إلى والى العراق الذى أوفده إلى الخليفة فلخص له ما انتهى إليه بهذا الصدد فى الكلمات الآتية أثناء حواره مع عثمان بن عفان رضى الله عنه.

يا أمير المؤمنين قد عرفتها وتنحرتها قال الخليفة: صفها لى: قل ماؤها وشل وثمرها دخل ولصها بطل، إن قل الجيش فيها ضاعوا. وإن كثروا جاعوا، فقال له الخليفة: أحابر أنت أم ساجع؟

قال بل حابر، فاكتفى الخليفة - رضى الله عنه بالبقاء فى إقليم مكران ورفض عبور النهر والانطلاق إلى داخل البلاد.

وعندما تولى عبد الله عامر بن كرير القشيرى ولاية العراق سنة ٢٩هـ عين عبد الله بن معمر التيمى حاكما على مكران، فأثخن حتى بلغ نهر السند وظل يحكم إقليم مكران إلى أن استشهد الخليفة عثمان رضى الله عنه.

وفى خلافة الإمام على كرم الله وجه وبرغم الفتن والمشاكل الداخلية، توجه الحارث بن مرة العبدى سنة ٣٩هـ= ٦٥٨ - ٦٥٩م على رأس ألف من خيرة المسلمين ومجموعة من القادة إلى مكران حيث انضمت إليه قوات أخرى من أهل البلاد، وسار الجميع إلى القيقان "الكيكان" - وهى جزء من بلاد السند يتصل

بالخراسان، ويسمى الآن "قلات"، وهناك قابله قوات غفيرة لأعدائهم بلغت عدتها عشرين ألفا، ودخلوا معها فى معركة دامية، وتمكنوا من تحقيق نصر مشرف عليها واسروا الكثيرين من أفرادها.

ولكن الإمام على استشهد للأسف فى هذه الظروف ـ وتلقى المسلمون خبر استشهاده فتأثرت معنوياتهم واضطروا للعمل على العودة مرة أخرى إلى مكران وقد شجع ذلك الأعداء فتجمعوا بأعداد غفيرة من جديد، وكان على الحارث بن مرة أن يلقاهم مرة أخرى فى نفس القيقان سنة ٤٢هـ = ٦٦٢م - أوائل زمن معاوية رضى الله عنه وقد أبلى المسلمون بلاء حسنا وثبتوا فى أماكنهم، ولم يهنوا أو يضعفوا وواجهوا الجموع الكثيرة فى بسالة منقطعة النظير حتى استشهد القائد نفسه ومعظم القادة والجند، ومن بقى منهم اضطر للعودة إلى ثغر السند - مكران ذلك الإقليم الذى بقى وحده بأيدى القوات الإسلامية، يتبع إقليم العراق، أحد أقاليم الدولة الإسلامية، وكان الولاة يفدون منه إلى إقليم مكران السندى.

***

ب - زمن الدولة الأموية

استمر الاحتكاك العسكرى والمناوشات بين المسلمين وأهل مكران أيام معاوية - رضى الله عنه" الذى كانت بلاد الهند ترتعش فى أيامه، فقد أتى الملهب بن أبى صفرة إلى ذلك الإقليم سنة٤٤هـ، نائبا عن عبد الله بن عام والى العراق، فوصل إلى "بنة"و"الأهواز" وبنه الآن هى بنوكوهات بباكستان - وهما بين الملتان وكابل - فلقيه العدو وقاتله هو ومن معه، كما لقى المهلب ثمانية عشر فارسا من الترك ببلاد القيقان الحصينة، فقاتلوه وقتلوا جميعا.

وفى زمن معاوية أيضا جاء عبد الله بن سوار همام العبدى على رأس أربعة آلاف مقاتل، فغزا القيقان - وأهلها من الترك - ثم وفد إلى معاوية وأهدى إليه خيلا قيقانية، ثم رجع إلى نفس المكان فقتله الترك وفى ذلك يقول الشاعر:

وابن سوار على عداتيه موقد النار وقتال السغب

أما زياد بن أبى سفيان فقد ولى سنان بن سلمة بن المحبق الهذلى على ذلك الإقليم ففتح ما بين مكران والقيقان عنوة، ثم سار إلى منطقة البودهية المجاورة وأقام هناك وضبط البلاد ولكنه استشهد بعد حكم استمر سنتين وتوالى الولاة لا يتجاوزون القيقان والبوقان وقصدار، وهى من المدن الداخلية فى إقليم مكران، وعندما بويع عبد الملك بن مروان خليفة على المسلمين سنة٦٥هـ= ٦٨٤م كان حال هذا الإقليم على ما كان عليه، فقد شغل الخليفة عنه بما واجه من حروب وفتن داخلية، ومعنى ذلك أن المسلمين لم يتعدوا حدود مكران إلا زمن معاوية حيث استولوا على شرق إقليم بلوخستان وقلات ثم تقدموا نحو قندهار وكابل ووقفوا عند ذلك الحد أى فى المنطقة الممتدة بين كابل ومكران عند الشاطئ.

ثم تولى الحجاج بن يوسف الثقفى أمر العراق والولايات الشرقية سنة ٧٥هـ=٦٩٤م فقام بدوره سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابى على ثغرى مكران

والبوقان، وقد أمكنه تنظيم البلاد إداريا وماليا واستطاع بمعاونة موظفين أكفاء جدد أن يضبط الإقليم وأن يحصل منه أموالا كثيرة بفضل سياسته ودهائه، ولكن خرج عليه جماعة من العرب الوافدين على هذه البلاد زمن الفتنة والذين خضعوا لملكها المسمى "داهر" وكان يتزعم هؤلاء معاوية بن الحارث العلافى ومحمد بن الحارث العلافى، وقد غلبا على هذه البلاد، وقتلا أميرها واستقلا بها من سنة ٨٠ إلى سنة ٨٥هـ=٦٩٩ - ٧٠٤م، وكان الحجاج قد أرسل واليا من قبله هو مجاعة بن سعر التميمى، ففتح ووصل إلى بعض نواحى "قنديل" وحمل العلافيين على الفرار إلى داخل البلاد وعادت مكران للسيادة الأموية، ولما مات ذلك الوالى بعد سنة، اختار الحجاج محمد بن هارون بن زراع النمرى ليحل محله. وقد نجح ابن هارون فى تنظيم ديوان مكران وقضى على زعماء الفتنة فيه وتتبع القتلة من العلافيين على مدار خمس سنوات وقضى عليهم أن يظهر العداء لملك السند.

وقد ساعد استتباب الأمن فى بلاد العراق وانتظام أمر الخلافة الأموية واستقرار الأوضاع بها والقضاء نهائيا على ما كان هناك من فتن، ساعد ذلك كله على توجيهات القوات الإسلامية للجهاد ونشر راية الإسلام فى مناطق جديدة من العالم. وخاصة وقد أكسبتهم الغازات الثغرية دربة على القتال ومعرفة بأساليب العدو وفنونه وخبرة بالمحيط الهندى ومسالكه، ثم تحولت الغازات الثغرية البحرية إلى هجوم بحرى سافر على يد أمير البحر الوالى محمد بن هارون.

فى ظل هذه الظروف كان الوليد بن عبد الملك قد تولى الخلافة وورث ملكا مستقرا عن أبيه وقد دفعه ذلك إلى التفكير فى استئناف حركة الفتوحات الإسلامية على كل الجهات.

أما بلاد السند فقد حدث فيها أمر ترتب عليه تغيير كامل فى السياسة التى كان "الحجاج" ومن سبقه يتبنونها إزاء إقليم مكران، هذا الأمر دفع الحجاج إلى التفكير فى إرسال قوات لفتح بلاد السند، لعل نور الإسلام يشرق عليها جميعا ونتخلص نهائيا من مضايقات الأعداء القابعين هناك.

إنما حادثة تتخلص فى أنه حوالى سنة ٩٠هـ=٧٠٨م أهدى ملك جريرة الياقوت (سرنديب - سيلان) للحجاج بعض الهدايا القيمة، وقد حملتها ثمانى عشرة سفينة عربية واتجهت نحو بلاد العراق، وقد صمت هذه السفن بعض النساء المسلمات اللائى عمل آباؤهم بالتجارة وماتوا فى "سرنديب" وكان ملك هذه البلاد يبغى بذلك التودد إلى أمير العراق، وبينما كانت السفن قريبة من ميناء "الديبل" ببلاد السند، هجم عليها جماعة من القراصنة ممن يسمون بالتكامرة، واستولوا عليها بكل ما فيها ومن فيها من التجار والنساء المسلمات ومضوا بهم إلى داخل بلاد السند وعلم الحجاج بما جرى عن طريق تاجر تمكن من الهرب وأخبره.

وبرغم ضيق الحجاج من تصرفات القراصنة ومن حماية ملك السند لهم، ومن مساندة العلافين المتمردين على حكومة بنى أمية إلا أنه آثر اللجوء إلى الطرق السليمة أولا، وذلك أنه من الحكمة ألا يستخدم العنف فى مثل هذه الظروف، خاصة وأرواح المسلمين والمسلمات الذين لا حول لهم ولا قوة فى أيدى هؤلاء المجرمين، وقد يقومون بالقضاء عليهم فى لحظة غضب، ومن هنا وجدنا الحجاج يؤثر إرسال رسالة إلى ملك السند يطالبه فيها بالتدخل وإرسال السفن وإطلاق سراح الأسرى، ولكن "داهر" ملك البلاد اعتذر بأنه لا سلطان له على القراصنة اللصوص وليس فى استطاعته القبض عليهم أو عمل أى شىء يساعد على حل القضية.

والواقع أن هؤلاء كانوا من أعوان ملك السند، وكان يسبغ عليهم حمايته كما أثبتت الوقائع بعد ذلك، ومن هنا غضب الحجاج، فقد تأكد لديه سوء نية ذلك الملك، ورأى أن الواجب يفرض عليه استخدام القوة لإنقاذ الأسرى وتأديب القراصنة، ولم تكن أمامه حيلة أخرى بعد أن أغلق "داهر" سبل السلام أمامه، وفرض عليه اللجوء إلى القوة ما من ذلك بد.

وقد أعد الحجاج جيشا بقيادة عبيد الله بن نبهان السلمى، ووجهه بحرا إلى ميناء الديبل (كراتشى الحالية) عن طريق عمان، ولكن ذلك الجيش فشل فى تحقيق

مهمته، ذلك أن الملك " داهر " كان ينتظر قدومه مستعدا لمواجهته، وقد استشهد عبد الله نفسه فى المعركة مع الكثيرين من جنده.

لم تدفع نتيجة المعركة الحجاج لليأس ولم يستسلم، بل أعد جيشا جديدا سنة ٩١هـ = ٧٠٩م جعل القيادة عليه لبديل بن طهفة البجلى، وقد أتخذ ذلك الجيش طريق البر إلى عمان ومنها إلى إيران فمكران حيث أمده الوالى محمد ابن هارون بثلاثة آلاف من الجنود، أضيفوا إلى ثلاثة آلاف فارس كانوا معه، وقد أعد هلم " داهر " جمعا قوامه أربعة آلاف مزودين بالأسلحة، تعاونهم عشرات الفيلة وجعل عليها ابنه المسمى " جيسية " وعند " الديبل " دارت معركة عنيفة بين الجانبين استمرت طوال اليوم. وقد ربط القائد " بديل " خلالها عينى فرسه لأنها كانت تهاب الفيلة، وقاتل بشجاعة نادرة وصرع ثمانين من أعدائه ولكنه استشهد آخر الأمر وخسر جيشه المعركة ووقع بعضه فى الأسر وانضم إلى الموجودين فى سجن الديبل.

وصل الخبر للحجاج فاستشاط غضبا وآلمه للغاية أن يلقى خيرة جنده هذا المصير على أيدى هؤلاء المجوس، فأقسم ليفتحن هذه البلاد وينشر الإسلام فى ربوعها، وقرر القيام بحملة منظمة، يعد هلا جيدا وتعمل على فتح بلاد السند وتنتقم من ذلك الملك العنيد، وكان على والى العراق والمناطق الشرقية أن يبعث للخليفة الوليد بن عبد الملك ينهى إلى ما حدث ويستأذنه فى إعداد الجيوش وإرسالها لتعمل ضد من يقفون فى سبيل تبليغ كلمة الله لكل السكان فى بلاد السند.

أما الخليفة فقد تردد أول الأمر، لأنه كان لا يزال يتهيب تلك البلاد، فهى مناطق واسعة بعيدة عن مقر الخلافة فى دمشق، فالمسافة بينها وبين العاصمة الأموية تصل إلى ٢٥٠٠ كيلو متر، كما أن طبيعتها صعبة وجغرافيتها غير واضحة لدى المسلمين، ففتحها والحالة هكذا قد يكلف المسلمين الكثير من النفقات والأرواح، ولكن الحجاج عاود الكرة موضحا ما عنده من خطط عسكرية محكمة

تضمن النصر بإذن الله، وتعهد أن يرد إلى خزينة الدولة ضعف ما ينفقه على فتح بلاد السند مما يدل على ثقة فى الفتح وفى وفرة ما سيحصله من مغانم من ذلك الفتح، وقد وافق الخليفة الوليد آخر الأمر، فكانت حملة محمد بن القاسم الثقفى.

وعندما قام ابن القاسم هذا بحملته كان المسلمون قد نجحوا فى فتح بعض المناطق بجنوب أفغانستان الحالية، ثم اتجهوا نحو كرمان ومكران - غرب إقليم بلوخستان الآن - وكذلك فتحوا سستان، ثم كانت حملة ابن القاسم الذى أتم الله على يديه نعمة إشراف الإسلام بكل مناطق السند ودخول أهلها فى دين الله أفواجا، فلنحاول منذ الآن متابعة أحداثها.

obeikandl.com

محمد بن القاسم
يفتح بلاد السند والبنجاب
زمن الوليد بن عبد الملك

obeikandl.com

obeikandl.com

محمد بن القاسم الثقفى فاتح بلاد السند

أحداث الفتح

فى سنة ٩٢هـ = ٧١٠م اختار الحجاج صهره وابن أخيه عماد الدين محمد بن القاسم الثقفى - الذى كان واليا على الرى ببلاد فارس - وعينه قائدا على الجيش الإسلامى الذى تقرر توجيهه لفتح بلاد السند، وذلك لما تميز به من أخلاق عالية وشجاعة وفروسية نادرة وإقدام، رغم عمره الذى لم يكن تجاوز السبعة عشر ربيعا، وأيضا لأن تلك كانت رغبته، ذلك أنه قال للحجاج " إنى لا أطلب منصبا ولا أطالبك برزق وإنما أطلب منك أن تعيننى على موته فى سبيل الله، فأعننى على الموت يهب لك الله الحياة " لقد سئم الحروب الأهلية وأراد توجيه همته لمجاهدة أعداء الإسلام ونشر ذلك الدين الحنيف.

وعلى كل حال لقد كان على ذلك الشاب أن يتجه نحو بلاد الهندى الغريبة عليه، وأن يقاتل عدوا انتصر على قائدين مسلمين من قبل بسهولة، وقد كان ابن القاسم أهلا للثقة به لحكمته ورزانته ومواجهته العدو دون خشية أو وجل، ولم يكن ما قاله المنجمون عن حسن طالعه وحظه وراء اختيار الحجاج له كما يذكر بعض الباحثين.

وقد زوده الوالى بكل ما يحتاج إليه من أسلحة وذخائر وأموال ولم يبخل عليه بأقل الأشياء حتى الخيوط والمسال كما عمد الحجاج إلى القطن المحلوج فنقع فى الخل الحاذق ثم خفف فى الظل وقال: " إذا صرتم إلى السند فإن الخل بها ضيق فانقعوا هذا الخل فى الماء واصطبغوا. . . " وجعل تحت أمره القائد عددا من خيرة الفرسان والمشاة بلغ ستة آلاف ما بين فارس وراجل وحرص على توديعهم بنفسه على رأس أفراد الشعب.

وقد وصل محمد بن القاسم إلى شيراز من الرى والتحق بالجيش هناك

ومكث بهذه المدينة ستة أشهر يرتب جنده ويدرب رجاله ويتعرف على البلاد وينظم جيشه ثم رسم خطة الفتح التى اعتمدت على إرسال بعض المجانيق والأسلحة على ظهر بعض السفن، وقد عين عليها اثنين من القادة وأمرهما أن يسبقاه إلى ميناء الديبل وأن ينتظراه هناك، وكانت السفن العربية فى عهد الوليد قد أصبحت تتخذ دور المبادأة بالهجوم، فالعرب قد استفادوا من حملاتهم السابقة ومن احتكاكاتهم ببحرية الهند، ولا يبعد أن يكون قد أعدوا سفنا يمكنها مواجهة أساطيل السند والسيطرة على المحيط الهندى أما ابن القاسم نفسه فقد سلك طريق البر مارا بإقليم مكران معه خمسة عشر ألفا من أهل الشام والعراق ومن الفرس والعرب، بالإضافة إلى ثلاثة آلاف من الجمال يحمل على نصفها الزاد والمئونة والسلاح، ويتقارب أفراد الحملة ركوب ١٥٠٠ منها بحيث خصص جمل واحد لكل أربعة أفراد.

وقد وصلت القوات إلى إقليم مكران فى نفس عام ٩٢هـ = ٧١٠م وبقيت هناك أياما للراحة والاستعداد لدخول بلاد السند، وقد تم اجتياز الحدود من مكان اسمه الآن " داربيتجى "Darbiji دون أن يصادف المسلون أثرا لقوات "داهر" أما الحجاج فكان على اتصال دائم بالجيش وقائده لا تغيب عنه توجيهاته ونصحه.

وقد حرص ابن القاسم على أن يستقر الوضع ويستتب النظام فى البلاد الواقعة غربى نهر السند قبل أن يعمل على الوصول إلى الضفة الشرقية لذلك النهر حيث تقع عاصمة " داهر " ملك السند.

وقد تحرك الجيش المسلم ونجح فى فتح بعض البلاد مثل "فنزبور" و"أرمابيل" قبل أن يصل إلى "الديبل" كثيرا من رجال الميد والجات (الزلط) وهى من القبائل السندية التى تركت مواطنها الأصلية بسبب سوء معاملة البراهمة لهم، إذ كانوا يعتبرونهم من المنبوذين ويحرمون عليهم امتطاء الدواب ولبس الملابس الغالية، ولم يكن يسمح لهم إلا بالعمل فى المهن الحقيرة، وقد أفاد المسلمين من شجاعة هؤلاء ومعرفتهم بمسالك السند وأحوال أهلها.

بعد ذلك تم تقسيم أفراد الجيش إلى مقدمة ومؤخرة وقلب، وبقى القائد فى القلب ومعه كبار العسكريين، وحاصر مدينة "الديبل" لمنع الزاد والمدد عن سكانها، وحفرت الخنادق وركزت الرماح حول حصن الديبل حيث يوجد أسرى المسلمين كما نظمت دوريات المراقبة والاستكشاف، وأحاط الجند الإسلامى بالحصن من كافة نواحيه، ووصلت رسائل من الحجاج تستحث الجند وتعمل على رفع معنوياتهم، وجهزت المنجنيقات، بينها منجنيق كبير عرف باسم "العروس" كان يحتاج إلى خمسمائة رجل لتشغيله، وقد أمر محمد بن القاسم قائد هذا المنجنيق واسمه " جعوبة المسلمى " فصوب قذائفه نحو العلم المتدلى من أعلى قمة لمعبد بوذى كبير وكان ذلك عملا بنصيحة بعض البراهمة، فقد أخبره أحد هؤلاء أن أهل وسكان هذه المنطقة يعتقدون بأنه لن يتمكن أحد من فتح هذه البلاد مادام هذا العلم مرفوعا " فهناك يد (صنم) عظيم، عليه دقل دويل، وعلى الدقل راية حمراء، إذا هبت الريح أطافت بالمدينة وكانت تدور " .

وقد استغل المسلمون هذا الإيمان بتلك العقيدة بهدف التأثير على نفسية سكان البلاد وتحطيم معنوياتهم، وهذا ما حدث بالفعل فقد أيقن أهل البلاد بالهزيمة وملأ الرعب قلوبهم عندما رأوا علمهم يهوى أمام أنظارهم، عندئذ تمكن المسلمون من دخول المعبد وأخرجوا ٧٠٠ فتاة كن يعملن فى خدمة الأصنام، ثم بدأوا هجوما شاملا على كافة جوانب الحصن فى وقت واحد، ووضعوا السلالم ليتسلقوا عليها إلى داخل الحصن، ونجحوا فى فتح أبوابه وقتلوا من كان بداخله، إلا من ثبت حسن معاملته لأسرى المسلمين، ذلك أن من كان بالداخل كان مسلحا، ولأنهم كانوا مصريين على الحرب، ثم لأنهم هم الذين آذوا المسلمين والمسلمات أثناء أسرهم فى الحصن، أضف لهذا أن الحجاج أراد أن يكونوا عبرة لغيرهم، أما حاكم " الديبل " فقد أمكنه القفز من فوق الحصن وهرب ليلا ثم توجه نحو عاصمة " داهر " ملك السند.

بعد ذلك جاء رجل من البراهمة وأرشد محمد بن القاسم إلى موضع السجن الذى فيه أسرى المسلمين داخل الحصن فتوجه إليهم وأطلق سراحهم.

وهكذا برهن تطور الحوادث على وجود المسلمين فى السجن الرسمى لملك السند وبداخل الحصن، مما يؤكد أنه كان وراء القبض عليهم وأنه هو الذى دبر للاستيلاء على سفنهم وممتلكاتهم، وأنه كان يكذب عندما زعم من قبل عندما اتصل به الحجاج أنه لا صلة له بهذه العملية، وأن ما جرى لهؤلاء إنما هو من فعل القراصنة واللصوص دون أن يكون له دخل فيه.

ولما تم لابن القاسم فتح الديبل، مكث بها فترة ونظم أمورها ووزع المغانم على مستحقيها وأرسل بالخمس إلى دار الخلافة، ثم عين حاكما للمدينة وترك لها ما يلزمها من حماية عسكرية تمثلت فى أربعة آلاف جندى. وقد اختار لهم مكانا أسكنهم فيه وأسس لهم مسجدا جامعا، وهذا هو شأن المسلمين عندما ييسر الله لهم فتح بلد ما، وقد انتهى ابن القاسم من ذلك كله فى رجب ٩٣هـ = ٧١١ م. وفى نفس العام أتاه كتاب الحجاج يقول: أنت أمير ما افتتحت.

أما "داهر" فقد أغضبته نتيجة القتال وأسل لابن القاسم رسالة تفيض تهديدا ووعيدا قال فيها: إن ما حدث فى "الديبل" ليس نجاحا كبيرا، فهذه المدينة لا يقطنها رجال مستقرون، ومن فيها ليسوا إلا تجارا لا يعرفون شيئا عن أصول وفن الحرب، ولا يجدى انتصارك على هؤلاء لقد سبقك جيشان إلى بلادى السند وقتل القائد فى كل منهما، وإذا لم تنسحب من بلادنا فستلقى نفس المصير، فلا تعتز بما رأيت فى "الديبل" فالشعب القوى يعمر أماكن أخرى فى السند، إننا أمة شجاعة ورجالنا يحاربون إلى آخر رمق ولا يستسلمون أبدا، وقد رد عليه ابن القاسم برسالة جاء فيها:

"إنك تفخر علينا بخيلك وفرسانك وجندك وما عندك من أسلحة ومعدات، ولكننا نثق فى الله وفى دفاعه عنا وهو - سبحانه - قد ضمن لنا النصر والكرامة لقد ساعدت الإيرانيين ضدنا وكنت سبب ثورات قامت تعادينا فى بلوخستان

ومكران بل أرسلت جندك هناك، فعلت ذلك دون أن نسئ إليك بشيء ثم استولى اتباعك على سفننا وأسروا أطفالنا ونسائنا وقد وجدناهم فى سجنك، مما يعنى أنك وراء القراصنة واللصوص، فلماذا ذلك كله؟ وقد عرف خليفة المسلمين كل ذلك وأمر بمعاقبتك وسنقاتلك حتى تفنى أرواحنا".

ولم يؤثر هذا التهديد على محمد بن القاسم، ومضى القائد الشاب يحمل الدعوة الإسلامية ويعمل على تبليغها للناس ونشرها وأمكنة فتح العديد من المدن والانتصار على المحاربين المعاندين.

فتوجه نحو مدينة النيرون – قرب حيدر أباد السند الحالية على مسافة ٧٥٠ ميلا من مكران وتسمى أيضا " نيرانكوت " – ونزل فى ضاحية من ضواحيها فى جمع من قادته ورجاله، وكان الوالى البوذى على تلك المدينة غائبا، وما لبث أن عاد وبعث برسالة خاصة لابن القاسم تتضمن اتفاقا سريا جرى بينه وبين الحجاج منذ عام يتضمن رضاه بحكم المسلمين، وقد فتح أبواب المدينة أمام القائد المسلم وجاء إليه يحمل هداياه فخلع عليه ابن القاسم وأكرمه، وبذلك سلمت هذه البلدة دون إراقة نقطة دم واحدة.

وبعد استسلام النيرون كتب الحجاج لابن القاسم يقول:

" لقد استسلمت النيرون وعليك أن تعامل أهلها بالشفقة وأن تستولى على قلوبهم، وإذا استسلم من رفع السلاح عليك فلا تؤذه ولتعفو ولتصفح ولتحفظ عهدك حتى يثق فيك الناس، وإذا رجعت مرة فى عهدك فإن ذلك يفقدك تقدير الناس ولن يأمنوا لك" وأوصاه فى مناسبة أخرى فقال:

" إذا أردت أن تحفظ بالبلاد فكن رحيما بالناس ولتكن سخيا فى معاملة من أحسنوا إليك، وحاول أن تفهم عدوك، وكن شفوقا مع من يعارضك، وأفضل ما أوصيك به أن يعرف الناس شجاعتك وانك لا تخاف الحرب والقتال ".

وعجيب أن تصدر هذه الوصايا من الحجاج الذى أشتهر بالشدة والقسوة والعنف فى تعامله مع خصومه.

ومهما يكن من أمر فقد توجه ابن القاسم بعد فتح (النيرون) ناحية سيوستان (سيهوان وسيبى الآن) على بعد ١٣٠ كيلو مترا إلى الجنوب الغربى - ونزل المسلمون فى موضع يقال له "موج" أو "ماوج"، وكان حاكم تلك المنطقة برهميا، فاجتمع به رعاياه من البوذيين وأخبروه أنهم مسالمون لا يرغبون فى سفك الدماء وأنهم يثقون فى مسالمة المسلمين لمن سالمهم، ولكن الحاكم رفض وجهة نظرهم، فاضطر الجيش المسلم لمحاصرة المدينة ورميها بالمنجنيقات، وضيق غليها الخناق مدة أسبوع كامل حتى يئس حماتها وتوقفوا عن القتال، وفر حاكمها تحت جنح الظلام إلى منطقة "البودهية"، عندئذ دخلها محمد بن القاسم واستولى عليها وغنم منها، وأمن البوذيين، لأنهم قبلوا الدخول فى طاعته سلفا ولم يستول على ممتلكاتهم كما فعل مع البراهمة.

ومن إقليم "سيوستان" هذا أهل "جنة" وهم جماعة كبيرة من البوذيين أسلموا جميعا زمن فتح السند على يدى محمد بن القاسم.

بعد ذلك توجه محمد بن القاسم نحو منطقة "البودهية" (البدهة) ونزل على شاطىء نهر يعرف بنهر كنبىء فى نفس المنطقة، وقد قرر حاكم الإقليم - بعد تشاور مع رجاله وقواده - القيام بغارة ليلية على معسكر المسلمين، ولكن الجيش ضل طريقه فى الصحراء، واد يخبر حاكمه، فتوجه ذلك الحاكم نحو محمد بن القاسم وأعلن استسلامه، وعاونه بنفسه فى القضاء على المتمردين حيث دخل المسلمون العاصمة الإقليمية "سيسم" وقضوا على فلول المعاندين.

وكالعادة اهتم محمد بن القاسم بتنظيم الأمور فى منطقة البودهية وعين خراجها، وساعد المسلمين على الاستيطان فيها وبنى بعض المساجد، وعين عليها حاكما ونصحهم بالاهتمام بالبلاد والحرص على راحة الشعب ورخائه.

من هذا العرض يبدو أن المحاربين - حتى الآن - كانوا من الهنادكة أو الهندوس أما طبقة التجار والحرفيين وغيرهم من المسالمين فكانوا بوذيين " وهناك من الشواهد ما يدل على مساندة البوذيين للمسلمين، فراهب منهم هو الذى قدم

لابن القاسم وأخبره بضرورة إسقاط العلم من أعلى المعبد لتسقط "الديبل" وواحد آخر منهم كان واسطة بين القائد المسلم وبين الأسرى من المسلمين، ومدينة "النيرون" كانت تحت حكم حاكم بوذى له مراسلات مع المسلمين قبل أن تطأ قدم محمد بن القاسم أرض السند وقد توقف القتال لمجرد وصول الحاكم وعودته من سفره وأعتذر للمسلمين وسلمهم المدينة. كذلك نصح البوذيون حاكم "سيوستان" بعدم محاربة المسلمين الذى لا يخالفون وعدهم، وعندما رفض، أعلنوا بصراحة أنهم لن يقاتلوا معه، ونفس الشيء حدث فى "كاكا" و"كوتاك" حيث لم يكتف الحاكم بعدم حرب المسلمين بل ذهب إلى معسكرهم وقدم لهم معلومات مفيدة، وسنعرف أيضا فيما بعد أن قادة البوذيين هم الذين أمدوا ابن القاسم بسفن يعبر بها إلى الضفة الشرقية لنهر السند، وهكذا تدل الشواهد على معاونة البوذيين للمسلمين ومساعدتهم لهم على فتح السند، بل أن المسلمين منحوهم ثقة لم يحظ بها بعض مواطنيهم، وهذا يسر مهمة الفاتحين.

وفى هذه الآونة تلقى ابن القاسم رسالة من الحجاج تشجعه وتشد أزره وتعطيه توجيها ببذل وعوده للزعماء فى مختلف الولايات حتى ينال مساعدتهم، وأوضح له وسائل التوصل إلى السلطة وتتلخص فى أربع هى: المداراة وبذل المال والرأى الصائب فى محاربة الأعداء بعد دراسة أمزجتهم ومعرفة نواحى قصورهم ثم إدخال الرعب والهيبة مع القوة والشهامة، ثم طلب منه أن يعبر نهر السند إلى ضفته الشرقية كى يدخل الفزع إلى قلب العدو، أخيرا أوضح له الحجاج أسلوب معاملة الرعية وفقا للخيار الذى تميل إليه من اعتناق للإسلام أو قبول الطاعة للمسلمين ودفع الجزية أو التصميم على الحرب والقتال.

وقد اضطر ابن القاسم أن يعود إلى مدينة "اشبهار" - بالقرب من مدينة "نيرون" بناء على أوامر الحجاج - وتمكن من الإجهاز على الحركة مناوئة قام بها بعض البوذيين وبعض رجال القبائل هناك، ثم عاد يتقدم نحو نهر السند وقضى فى طريقه على كل مقاومة وظل يواصل مسيرته حتى وصل إلى الضفة الغربية لنهر

السند، فى موضع مقابل لجيور (جيبور) ولمدينة " راور " اللتين تقعان على الضفة الشرقية لنفس النهر.

وقد أرسل حاكم منطقة " بت " البوذى، رسالة إلى القائد المسلم يعلن فيها ولاءه واستعـداده للتعاون مع المسلمين، على أن يتم ذلك بطريـقة ترفع عنه الحرج أما الملك " داهر " الذى تربطه به صلة قرابة، وقـد تم بالفعل ترتيب طريقة سلم بها نفسـه وجنده لابن القاسم، وقد أكرمـه الأخير ورحب به وجعله حـاكما على منطقة " بت " كما أهدى لمعاونيه من التكاكرة ثم طلب منه تجهيز السفن والمراكب اللازمة لعبور الجيش الإسلامى إلى الضفة الشرقية لنهر السند.

وهكذا بدأ الناس يتـعرفـون على الإسـلام ويدخلون فى دين الله أفواجـا، ونجح ابن القاسم فى مسيرته المظفرة حتى أضحى على شاطىء نهر السند الذى تقع عاصمة " داهر " على ضفته الشرقية.

فى هذه المرحلة بعث ابن القاسم رسولا إلى ملك السند كـما فعل السابقون ممن فتحوا مناطق أخرى من العالم، وقد عرض الرسول على " داهر " الإسلام أو تسليم البلاد صلحا والرضى بحكم المسلمين، فإن أبى فليس أمام المسلمين إلا قتاله حتى يحكم الله بـينهم وبينه، وهو خير الحـاكمين، وقـد طلب الرسول من ملك السند – فى حالة إصراره على الاخـتيار الأخير – أن يختار عـبور النهر إلى حيث يوجد المسلمون على الضـفة الغربية لنهر السند، أو يسمح لهم بالعـبور إلى الضفة الشرقية، ليتيسر التقاء الفريقين فى ساحة القتال.

وقد عرض المـلك الأمر على مستـشاريه، فنصحه وزيره بأن يتـرك المسلمين يعـبرون إليه فـى ناحيتـه الشرقـية، بذلك يـكون النهر من خلفـهم، وجند السند أمامهم، وتنقطع عنهم المؤن والإمدادات العسكرية فيسهل القضاء عليهم.

ولكن محمـد العلا فى – أحد المتمـردين على الدولة الأموية والذى يحظى بتأييـد وحمايـة ومعاضـدة " داهر " – رفض فكرة الوزير ورأى العكس يعنى أن

المصلحة أن يجتاز جند البراهمة النهر إلى حيث يوجد المسلمون على الضفة الغربية، وحجته أن المسلمين يجاهدون فى سبيل الله، ويبحثون عن الشهادة طلبا للجنة ولن يرضيهم إلا الموت لرفع كلمة الله أو تحقيق الانتصار، فهم صابرون فى القتال يستميتون فى جهادهم بروح عالية، خاصة إذا رأوا أنفسهم قاب قوسين أو أدنى من العاصمة السندية، وأضاف " العلافى " فى نصيحته للملك أنه ينبغى إرسال القراصنة واللصوص ليقوموا بالاستيلاء على المؤن والمواشى والعلف والقوت من خلف الجيش الإسلامى، وبذلك يتعرض للجوع وتفتك به الأمراض ويتيسر القضاء عليه.

وقد احتار الملك ولم يعرف أى الرأيين يختار، وأخيرا قرر ترك الأمر لمحمد ابن القاسم وفوض إليه اختيار ما يشاء، فقرر القائد المسلم العبور إلى الضفة الشرقية، وبدأ يتصل بالمسلمين الجدد من أهل البلاد، ويطلب منهم التوجيه والنصح وإرشاده إلى أنسب مكان يتيسر عليه اجتياز النهر منه، وفى نفس الوقت طلب الحجاج إمداده بخريطة مفصلة للمنطقة بهدف دراستها وإبداء الرأى، ثم استقر الجميع بعد المشاورات على اختيار نقطة بعينها للعبور منها.

أما "داهر" فقد بنى خطته العسكرية على أساس الاحتفاظ بالقسم الأكبر من جيشه عند مدينة "راور" بالشاطىء الشرقى، وأن تبقى السفن بالناحية الشرقية أيضا فى مقابل "بت" على الضفة الغربية حتى لا يتمكن المسلمون من العبور من هذه المنطقة السهلة وحتى يجبروا على اجتياز النهر من مكان صعب، ثم أمر أحد وزرائه أن يكون جيشا وأن يقف على أهبة الاستعداد للهجوم على المسلمين فور وصولهم إلى الضفة الشرقية، وكان فى الإمكان جمع ٥٠ ألف فارس وعدد ضخم من الفيلة ونقل أمتعة ورجال ومعدات ضخمة من "برهمان أباد" إلى "روار".

وبرغم كل الدراسات التى أسهمت فيها كل الأطراف، فإن اجتياز نهر السند إلى ناحيته الشرقية لم يكن أمرا سهلا، فقد واجه الجيش المسلم صعوبات عديدة ولكنه تمكن من تجاوزها.

فقد اضطر محمد بن القاسم أن يرجع مرة أخرى إلى " سيوسان " للقضاء على حركة تمرد معاوية، لأنه لم يكن يرغب فى اجتياز النهر وهو مشغول بأمر من خلفه، فلا بد من التأكد من فتح الطريق ووصول الإمدادات والمؤن اللازمة لأفراد الجيش، وقد تحرك القائد المسلم إلى منطقة " جهم" وتعطل بها قرابة شهرين بسبب هذه الاضطرابات وبسبب مرض أصاب الخيل، وبسبب عجز فى المواد الغذائية والمواشى والعلف. كذلك لم تكن حالة المناخ والرياح مناسبة، الشىء الذى أثر على الحالة الصحية والمعنوية للجنود.

وقد انتهز " داهر " سوء الأحوال وأرسل يهدد " ابن القاسم " ويعرض عليه المساعدة الغذائية على أن ينسحب إلى الخلف، ولكن ابن القاسم أكد لعدوه أنه لن يترك أرض السند قبل إرسال رأس " داهر" للحجاج.

أما والى العراق فقد سمع بما آل إليه حال الجيش المسلم، فبادر بإرسال ألفين من الخيول العربية الأصيلة مع بعض المواد الغذائية والخل المجفف، كذلك بعث بمرسوم عين بمقتضاه محمد بن القاسم نائبا عن الحجاج فى بلاد السند، وفوض إليه التصرف فى شئونها، كما شجعه على عبور نهر السند إلى ضفته الشرقية مهما كانت التكاليف، ونصحه أن يكون عبوره من منطقة "بت" حيث يقل الماء ويقل عرض النهر، وأشار عليه ببناء كوبرى من القوارب تيسيرا لعملية العبور.

وبالفعل وصل محمد بن القاسم إلى "ساكرة" فى منطقة جهم (جيم) وبدأ فى تجهيز المراكب اللازمة للعبور، وتزويد الجيش بالمواد الغذائية والأسلحة، وأرسل بالوحدات الاستطلاعية إلى جهات متعددة من النهر، كما بعث بفرق عسكرية إلى نواح مختلفة بهدف العمل على منع وصول الإمدادات إلى جند "داهر" مع إعاقة تحركاتها وقت عبور الجيش المسلم وحصرها فى بقاع معينة، والتعامل معها إذا لزم الأمر، كما أمر بتوفير المزيد من الغذاء والعلف للقوات وأصبح بهذا كله مستعدا لاجتياز نهر السند إلى ضفته الشرقية.

أما "داهر" فقد تجاهل تحركات القائد المسلم واشتغل بالصيد ولعب الشطرنج استهانة بالمسلمين واطمئنانا لما أعد من خطط عسكرية.

وقد أمر محمد بن القاسم بأن يتقدم محمد بن مصعب الثقفى على رأس وحدة صغيرة لمراقبة الطريق، تتلوه فرقة من ألف فارس يقودها "بنان بن حنظلة" لحماية المقدمة، ثم سار هو نفسه على رأس القواد المسلمين وكبار التكاكرة والزط مع الجيش الرئيسى حتى وصلوا إلى شاطىء النهر، وهناك اختار موضوعا قليل العرض، ثم أحضرت المراكب المحملة بالرمال والحجارة وألواح الخشب، وأمر القائد بتسمير الألواح على المراكب فى صورة جسر يمكن العبور عليه للجهة الأخرى. كما أمر الوحدات البحرية الانتحارية أن تتوجه بسفنها نحو الشاطىء الشرقى من مناطق متعددة لتحول بين قوات البحرية السندية وبين التقدم ولتحمى الجيش المسلم فى وسط النهر أثناء العبور. أما بقية الجيش الإسلامى فقد تلقى أمرا بصف المراكب على طول الشاطىء الغربى وربط بعضها ببعض على امتداد النهر وأن يحمل الجنود عليها، أخيرا أمر محمد بن القاسم بفك رأس المركب الأول حتى يسير فى النهر متجها نحو الضفة الشرقية، يتلوه الثانى، وهكذا.

وبذلك نجح المسلمون فى بناء جسر من المراكب عبروا عليه فى شجاعة وحذر وبدون خسارة كما يذكر " ماجمدار الهندى ".

وقد اندفع المسلمون فى إصرار واستبسال داخل مناطق الناحية الشرقية للنهر، وفاجأوا العدو بسهامهم ودخلوا معه فى قتال مرير انتصروا فيه فاندهش جند " داهر " لما حدث وأخذوا يولون الأدبار ويهربون فى عماية الظلام حتى وصلوا إلى ملكهم فى مقر حكمه وأخبروه بما حدث، فانزعج وكاد يفقد وعيه، بينما تمكن جيش المسلمين من إلحاق هزيمة مريرة بوحدات عسكرية قادها "محمد العلاقى" المتمرد على سلطان الحكومة المركزية فى دمشق، وأخرى قادها واحد من وزراء ملك السند، وواصل مسيرته نحو العاصمة، حيث استعد الملك "داهر" بأقصى ما يستطيع موقنا أنه يلقى المسلمين فى معركة مصيرية نتيجتها الموت أو

البقاء، ولذلك بذل كل جهد وسعه، وحشد لها كل الإمكانيات، ووفر لها جميع ما يحتاج إليه، وخطط لها أعظم التخطيط وأعد أفضل الجند وأحسن السلاح، ثم رأى أنه من الضرورى أن يتولى القيادة بنفسه، هذا ما يميله عليه الموقف شاء أم أبى، بعد هزيمة "العلافى" وهزيمة الأمير "جيسية" وعدم تمكنها من الصمود أمام المسلمين.

أما ابن القاسم فقد استعد بأقصى طاقته هو الأخر، واستسلم له بعض الأمراء وعاهدوه على الولاء، ثم توجه بكل قادته ورجاله إلى موضع يدعى "نارائى" بينما عسكر "داهر" فى مكان يقال له "قاجيجاق" وكانت هناك بحيرة تفصل بين الفريقين، وقد واصل ابن القاسم تقدمه قليلا نحو نهر "دهواة" فى منطقة "جيبور" حيث تقع قرى كثيرة تيسير عليه عملية الهجوم على جيش "داهر" من الأمام ومن الخلف، وكان ذلك بناء على نصيحة أحد أمراء السند الذين أعلنوا ولاءهم للمسلمين، ولما علم "داهر" بموضع الجيش الإسلامى الجديد ترك قلعة "راور" وتقدم نحو "جيبور" كذلك تقدم ابن القاسم واقترب الجمعان وأصبح الفاصل بينهما نصف فرسخ فقط.

وعلى امتداد سبعة أيام كانت تخرج فرقة مسلمة لمحاربة فرقة سندية فى الساحة الواسعة بين الجيشين، وكان القتال يستمر أحيانا طوال اليوم، والمحصلة النهائية كانت فى صالح المسلمين ومن هنا قرر ملك السند القيام بهجوم شامل ضد المسلمين وأن يتولى القيادة بنفسه، فأعد خمسة ألاف فارس من أبناء الأمراء ومائة فيل حربى وعشرة ألاف فارس مزودين بالأسلحة وعشرات الآلاف من أبناء القبائل، ثم اختار فيلا ضخما ركبه ولبس درعه وأخذ سلاحه وقوسه وصحب غلامين يمدانه بالسهام، وقرر دخول المعركة الفاصلة، فكان هذا أول لقاء شامل بين العرب وبين مقاتلة الهندوس الذين تمرسوا على استخدام الفيلة والرمى بالنبال واستخدام النفط.

وفى التاسع من رمضان سنة ٩٣هـ=٧١١م بدأ القتال الشامل بين الطائفتين

بعد أن نظم كل منهما قواته ووزع قـياداته ورتب خططه وكان " العلو فى " يعمل مع ملك السند ويقاتل المسلمين وقد استمرت المعركة طول اليوم.

ومن الطبيعى فى معركة مصيرية كهذه أن يبذل الفريقان كل طاقتهما، ولهذا كانت نتيجـة القتال فى هذا اليوم الأول سجالا، مرة يحـمل المسلمون على العدو ويتقدمون، ومرة أخرى يستخدم العدو ويتقدمون، ومرة أخرى يستخدم العدو فيلته فترد المسلمون إلى الوراء، وجاءت مـعاناة المسلمين من الفيلة فى هذا اليوم الأول، وفى اليـوم التالى لمس المسلمـون نقاط ضـعف عدوهم وأدركـو من أين يأتونهم، فأعـادوا تنظيم جنودهم، واستخـدموا المنجنيقـات والرماة، وعملوا للقـضاء على الفيلـة وتشتيت مـجمـوعات العدو بـالنيران، وألقى القـائد فيهم كلمـة ترفع من معنوياتهم وتحثهم على التزام المراكـز وذكر الله دائما، وأن يحرصوا على أن تكون أعمالهم جهادا فى سبيل الله، فاستبسل المسلمون فى قتال العدو الذى كان قد غير خططه وتنظيماتـه، كما كانت تعاونه آلاف من قـبائل الزط الشرقية وغـيرهم حتى بلغت عـدة من معـه ١٢٠ ألفا، ومع ذلك نجـح المسلمون فى دحـر بعض فرقـة فالتهب القتال وحمى وطيس المعركة، وتداخلت القوات، وانزعجت الفيلة وصمم المسلمون على نيل إحدى الحسنين إما النصـر وإما الشهادة، والوصول إلى رضوان الله والجنة.

وأثناء اشتعال المعركة تقدمت مجموعه من قادة السند نحو محمد بن القاسم وطلبـوا الأمان، فـمنحهم الأمـان، وأعلنوا إسلامـهم بين يديه، وعرضـوا خطة عسكرية تنهى المـعركة وتبرهن علـى ولائهم وصدق إيمانهم، وتقـوم على هجوم مباغت على مؤخرة الجيش السندى، وبالفـعل توالوا الهجوم من الخلف، بينما قام ابن القاسم بالهجوم من الأمام، وكان "داهر" يركب فيلا ضخما يقود بقية الفيلة، وقد أقسم واحد من قادة المسلمين اسمـه "الشجاع الحبشى" ألا يذوق الطعام حتى يقتله، وربط عين فرصه وبر بقسمه فـتقدم حتى تمكن من جرح فيل القائد الضخم الذى كانت تتـحرك بحركته كل الفـيلة، ولما هاج فيل القائد أخـذت باقى الأفيال

تترنح وتصيح، واختل توازن الجيش وازداد لهيب المعركة اشتعالا، وملت الكفة فى أول الأمر لصالح جيش السند وأصيب الشجاع بسهم، ولقى الله شهيدا، وتأثر بن القاسم نفسه من هول المعركة وطلب شربة ماء، وما لبث المسلمون أن ثبتوا من جديد بعد أن سمعوا نداءات القائد وصيحته على جنده بالثبات، وعلا التكبير الله أكبر الله أكبر يملأ الأفاق فهاجت الفيلة وسالت الدماء هنا وهناك وتكسرت الرماح والسيوف من شدة الضربات، وعادت الكفة تميل لصالح المسلمين، واضطربت أحوال جيش السند، ولم يصدق ملكهم ما تراه عينه، حيث لم يبق معه إلا فارس من أبناء القواد والأمراء من بين خمسة آلاف كانوا معه، وقد واصل المسلمون قتالهم بصورة مستميتة.

ولما آذنت شمس ذلك اليوم بالغروب أمر محمد بن القاسم قائد رمة النفط بأن يقذف هودج فيل داهر بسهام مزودة بمادة كيماوية مغموسة فى قطن ثم لفه حول رءوس السهام، وكانت هذه المادة تشتعل عند رمى السهام، فاشتعلت النيران فى الهودج وشعر الفيل بعطش شديد من شدة الحرارة، واضطر ملك السند أن يتجه به ناحية النهر ليسقيه، وهناك طارده المسلمون وأمطروه بوابل من سهامهم واشتبكوا معه فى قتال شديد، واضطر " داهر " أن ينزل من على فيله وأن يقاتل بضراوة إلى أن تمكن جندى مسلم اسمه " عمرو بن خالد الكلابى " من ضرب عنقه، وقال فى ذلك شعرا:

الخيل تشهد يوم داهر والقنا ومحمد بن القاسم بن محمد

انى فرجت الجمع غير مصرد حتى علوت عظيمهم بمهند

فتركته تحت العجاج مجدلاً متعفر الخدين غير موسد

وفى رواية الكلبى أنه قاتل ملك السند هو "القاسم بن ثعلبة بن عبد الله بن حصن الكائى".

وعلى كل حال فقد أخفى أصحابه جثمانه فى خليج "راود" وتوقف القتال بحلول الظلام.

وفى اليوم التالى نادى ابن القاسم معلما أصحابه بغياب " داهر " ومحذرا من حيلة أو من كمين قد يكون هناك، ولكن واحدا من البراهمة أعلم المسلمين بمقتل " داهر " وأرشدهم إلى المكان الذى توجد فيه جثته فقطعوا رأسه وبعثوا به لابن القاسم الذى صلى شكرا لله عز وجل.

وقد استولى المسلمون على كثير من المغانم والكنوز والأموال وعلى عدد من الأميرات وأرسل الجميع إلى دار الخلافة.

وبذلك أصبح الطريق ممهدا لفتح باقى البلاد.

وكان ولى عهد السند قد بقى متحصنا فى قلعة " راود " على رأس من بقى من الأمراء والقادة بعد سقوط العاصمة، ثم أخذ برأى نصحه بمغادرة القلعة إلى المدينة " برهمان أباد " فهى مدينة حصينة وأهلها من المؤيدين له، وبذلك لم يبقى فى قلعة " راود " إلا النساء وعدد من القادة والجند للدفاع عنها.

وفى رمضان سنة ٩٣هـ = ٧١١م توجه المسلمون لفتح القلعة وقذفوها بحجارة المنجنيقات بعد أن رفض من فيها الاستسلام، كما رموها بالسهام والرماح والنيران ليلا ونهارا حتى تهدمت أبراجها واضطر بعض من فيها إلى حرق أنفسهم، ودخلها ابن القاسم ليجد فيها ستة آلاف مسلحين، فأمر بقتلهم لرفضهم الاستسلام، أما النساء والشيوخ والأطفال فقد أصبحوا أسرى، كما استولى المسلمون على مغانم كثيرة.

بعد ذلك كتب ابن القاسم إلى الحجاج ينهى إليه مقتل " داهر " ويشرح تفاصيل ما دار من قتال، كما بعث إليه بوفد من القادة. ممن شهدوا المعركة وعاينوا أحداثها، وكان مع هذا الوفد رسالة توضح دور كل واحد من القادة وتشرح بطولاته، وكان مع الوفد الأسرى والأموال تحميه مائتى فارس مسلح، وسار الجميع من مكان المعركة إلى دمشق، حيث قدم قاتل الملك " داهر" رأسه إلى الحجاج والى العراق والإمارات الشرقية.

وقد أثنى الحجـاج على محمد بن القاسم وأشـاد ببطولاته فى رسالة أرسلها إليه وطلب منه تكريم زعماء القبـائل والقادة الذين أبلوا بلاءا حسنا فى القتال ولم يضمنهم رسالته التى سبق وبعث بها إليه.

ويذكر " البـلاذرى " عن منصور بن حاتم اللغوى - الذى قـام بالسند بعد فتـحها - أنه شاهد مـصورا - تمثالين - أحـدهما للداهر والآخر لقـاتله فى مدينة بروص (بهروج)، كـما شـاهد مصـورا (تمثالا) للقائـد بديل بن طهفة فـى مدينة "قند" وأنه زار قبره فى مدينة " الديبل " حيث أستشهد.

ويرجع نجاح المسلميـن فى فتح تلك البلاد الواسعة إلى إيمـانهم واطمئنانهم إلى ما أعـد للمجاهدين عند ربهم وإلى نوعـية القوات وكـفاءة القيـادة العسكرية والتفوق فى فن التكنيك العسكرى، ثم إلى سياسـة المصالحة التى تبناها محمد ابن القـاسم إزاء كل استـسلم، فكان الفتح الإسـلامى حريصـا على رغبـات السكان المشروعة أكثر منه معارك عـسكرية، لقد رحب رجال الدين البوذيين بالمسلمين فى " نيرون " وثار شـعب " سيـهوان " على حاكـمه الهندى وسلم للقـائد المسلم، وهكذا ساعدت كراهية الشعب لحكامه على نجاح المسلمين، فقطاع كبير من سكان السند والملتان كان بوذيا.

وفى سنة ٦٢٢م كان قـد اغتصب الـعرش وزير رهمى اسمـه شاش chach ولم تلق حركته استجابة لأى طائفة كبيرة من الشعب، خاصة وأن هذا الملك عامل قبائل الزط والميد مـعاملة سيئة، وحرم عليهم حـمل السلاح ولبس الحرير وركوب الخيل وفرض عليـهم أن يمشوا حفاة وأن يرافقـهم كلب، وجاء من بعده ابنه داهر ٤٩ - ٩٤ / ٦٦٩ - ٧١٢هـ الذى لم يصل للحكم إلا قبل الفتح الإسلامى بفترة وجيزة - واتبع نفس السياسة، فـأصبحت سيطرته على السند - ومعظم سكانه من البوذيين - واهية، ولم يلق استجابة من جـانب قطاعات كبيرة فى الشعب، بل إن كثيرا من الضـباط والجنود تحولوا بسرعة إلى المسلمـين أثناء حربهم ضد هذا الملك كما كان دعم وتأييـد قبائل الزط والميد من أكبر أسباب انتـصارات المسلمين، وقد

أخذ ابن القاسم فى تجنيـدهم تحت قيادته واعتـمد عليهم فى التخفـيف من شعور العداء للمـسلمين عند بعض الطـوائف باعتبـارهم عدوا أجنبيـا، وبهم وصل إلى الانسجام الداخلى وحـقق تقدما لا يقدر فى بلد شاسع يقطعـه العديد من الأنهار والقنوات والمستنقعات.

مواصلة الفتوحات:

علم الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك بتفصيلات معارك المسلمين فى بلاد السند ونجاحـهم فى إزاحة عقبـة كبرى كانت تقف حـجرا عثرة تعـوقهم عن أداء واجبـهم فى تبليغ كلمة الله وتوصيلـها لكل الشعوب، فـسر الخليفـة بما تحقق من نتائج وخلع على ابن القـاسم وعلى القادة وأمره أن يواصل فتـوحاته فى باقى بلاد السند.

استجاب القائد لأمر الخليفة وأخذ يواصل فتوحاته فى بلاد السند فتسقط بين يديه المدن واحده تلو الأخرى فـقد توجه إلى مدينة "بهـرور" على بعد فرسخ من "برهمـان آياد" وكان يتـحصن بهـا - كمـا قدمنا - نحـو ١٥ جندى، وقـد قام المسلمون يقذف المدينة بالأحجار والنيران حتى تهدمت أسوارها وقتل عدد كبير ممن فيها واستولت عليها القوات الإسلامية وعلى ما كان بها من أموال وسلاح.

بعـد ذلك توجه ابـن القاسم نحـو مـدينة صغـيـرة بجـوار بهرور تسـمى "دهليلة"، وكان يتحـصن بها حوالى ١٦ ألفا من الجنود، فحـاربها الجيش المسلم وضيق الخناق عليها حتى اضطر حاكمها ومعظم سكانها وتجارها إلى مغادرتها ليلا فى اتجاه الهند فاستولى عليها المسلمـون فى الصباح، وعين ابن القاسم عليها واليا جعله مشرفا على موانى سواحل تلك المنطقة من الضفة الشرقية لنهر السند.

بعد ذلك عمـل القائد المسلم على فتح مدينة "برهمـان أباد" لكنه قبل ذلك أراد أن يوجه نداء عـاما معذرة إلى ربه - عـز وجل - على الناس يتقون، فـبعث برسائل إلى كل الحكام والأمراء فى كافة مناطق السنـد دعاهم فيها إلى الإسلام أو

الطاعة للمسلمين، وعرض الأمان لمن رغب فيه، فحضر عنده الوزير " سيساكر " Sisakar وطلب تأمينه، فأكرمه ابن القاسم وأهدى إليه وولاه وزارته، واستفاد بكثير من أرائه وخبراته فى مسائل الدولة وفى العمليات العسكرية، وكان الوزير من ناحيته مخلصا معجبا بالإسلام ومبادئه وقيمه الاجتماعية والأخلاقية، وقد تنبأ بأن كل السند والهند ستخضع له قريبا وستنعم كل البلاد بعدله وسماحته، وقد مات ذلك الوزير بعد سنتين من إسلامه.

أما ابن "داهر" "جيسية" Jaisiya فقد وصل إلى برهمان أباد، وتحصن بحصنها الكبير – وهى تبعد بفرسخ واحد فقط عن مدينة "دهليلة " – ومن موقع حصنه الجديد، كتب ذلك الابن إلى الأمراء والحكام يحثهم على معاونته وأن يستعدوا معه لمحاربة المسلمين، فتمكن من جمع ستة عشر من المحاربين وعشرات آلاف الجنود من مناطق السند المختلفة، وحصن المدينة تحصينا قويا وجعل على كل باب من أبوابها واحدا من كبار قادته.

أما ابن القاسم فسار إلى نفس المدينة ونزل على حافة نهر صغير بضواحيها اسمه نهر "حلوانى" ومن هناك أرسل لابن داهر يدعوه إلى قبول الإسلام أو الطاعة ودفع الجزية وإلا فالحرب، وقد مال الزعيم السندى إلى الخيار الأخير، عندئذ استعد محمد بن القاسم وحفر الخنادق ووزع الوحدات العسكرية، ثم بدأت المعركة، فكانت تخرج فرقة من أربعين ألف جندى تقاتل المسلمين من الصباح إلى المساء ثم يعود من سلم منها إلى الحصن بعد أن تتعرض للهزيمة، واستمر الحال هكذا مدة شهرين، ثم توقف القتال فى ٣٠ ذى الحجة سنة ٩٣هـ = ٧١٢ م.

ذلك أن حال الجيش المسلم كانت قد ساءت بسبب استمرار القتال وقلة المواد الغذائية، وقد عمل محمد بن القاسم بنصيحة بعض الأمراء فطلب قوات إضافية أخرى وكون جيشا من الفرسان جعل عليه الأمير " موكه بن بسايه " حاكم منطقة " بت " الذى دخل قبلا فى الإسلام، كما كون فرقا من المشاة فيها كثير من أفراد القبائل السندية وزحف بكل ذلك على مدينة "برهمان أباد " .

علم زعيم السند بوجهة واستعداد المسلمين، فسار نحو " جيبور " بحيث يستطيع الهرب منها إلى حدود الهند، بينما تركه " محمد العلافى " وأتجه نحو بلاد كشمير خارج حدود السند.

عند ذلك طلب أعيان " برهمان أباد " وسكانها الأمان، فعقد لهم ابن القاسم عهدا والتزموا بالطاعة وفرض عليهم الجزية، ثم دخل المدينة ولم يقاتل إلا من رفض التسليم، وأسر نحو عشرين ألفا بينهم زوجة ثانية لداهر وابنتان، واستولى على مغانم وزعها وبعث بالخمس إلى بلاد العراق، وفى اليوم التالى جاءه ألف من البراهمة ممن اتخذوا مظاهر الحزن لهزيمتهم وقتل ملكهم البرهمى، فأمنهم ابن القاسم بناءا على رغبتهم.

أكثر من هذا أصدر قائد المسلمين أمرا باحترام رجال الدين البراهمة، وعهد إليهم بعدد من مناصب ووظائف الإدارة وجمع الخراج من المنطقة وقراها، وعين حراسا على أبواب المدينة منهم وتعهد بمنحهم كافة التسهيلات اللازمة كى يعيشوا معيشة كريمة فى ظل قيم الإسلام ومبادئه، وسمح لهم بترميم بيوت العبادة وإقامة طقوسهم البرهامية، نصحهم بأن يتعاونوا مع المسلمين فى المسائل التجارية والإدارية، وعين كل من " تميم بن زيد القيسى " وحكم بن عوائد الكلبى لتنظيم المسائل التجارية والإدارية وديوان الخراج والجزية، وعين للمدينة حاكما عسكريا مؤقتا، ثم كتب يخبر الحجاج بفتح تلك المدينة الحصينة والخطوات التى أتخذت لتنظيم إداراتها والتى يمثل سقوطها نهاية المعارضة الجادة والعداء للإسلام.

وقد أجابه الحجاج بقوله: ابن أخى محمد بن القاسم، إن سلوكك العسكرى يستحق الثناء والإطراء، والآن لا ينبغى أن تمكث فترة أطول فى تلك المدينة، إن عمدة بلاد السند هى آلور Alor وMulten، وينبغى أن تتأكد لك السيادة على كل الهند والسند، وإذا رفض بعض الناس الخضوع للحكم الإسلامى فلتقتله، لعل الله العظيم يقضى لك بالنصر، فتخضع لك البلاد من الهند إلى تخوم الصين.

وهكذا نرى أنفسنا أمـام مثال واضح على سماحـة الإسلام، وتعاون حكام المسلمين مع غيـر المسلمين فى المجتمع المسلم والاستـعانة بهم فى المسائل الإدارية والمالية والاستفادة بما عندهم من خبرات والسـماح لهم بممارسة شعائر دينهم حتى لو كانوا مجوسا دون شـعور بحساسية، " فقد أكـرم القائد المسلم رؤساء الهنادكه من رجال الدين وأطلق للناس حرية العبادة على أن يوالوا المسلمين ويدفعوا الجزية عن طيب نفس " .

لقد كـانت بلاد السند أول بلاد يتعامل فيـها المسلمون مع أمة تعـبد الأوثان بأكملها، لكـن ابن القاسم كان سمحـا منهم، ومنحهم نفس الحقوق التى يقـدمها الإسلام لليهود والنصـارى من حيث حرية العقيدة والعبادة ونظر إليـهم باعتبارهم بشرا وفتح بذلك قلوب العباد.

يقول K.S. Lal أن أفراد الشعب توسلوا إلى " محمد بن القاسم " بعد فتح " برهمان أباد " أن تضمن لهم حرية العبـادة فرفع الأمر للحجاج وجاءه الرد منه يقول:

" ما داموا قد استسلموا ووافقوا على دفع الجزية للخليفة، فإنه ليس لدينا ما نطالبهم به، ولقد تعهدنا بحمايتـهم، ولا يمكننا بأى حال أن نستولى على حياتهم أو ممتلكاتهم، فلتسمح لهم بعبادة آلهتهم " .

وقد تبنى غيـر المسلمين من التجار والصناع والفـلاحين ورجال الدين الذين لم يكونوا مستعدين للاستسلام فقط، بـل وقدموا مساعداتهم للفاتح حيث منحوه كل المعلومات التى طلبها، مما جعل مهمته سهلة.

إن كثـيرا من التسـامح كان فى الحقـيقة ردا عـلى عدم المقاومـة من جانب الشعب، وحيـثما وجدت المقـاومة فى بعض المناطق - فإن انتقـام القاسم لم يكن يعرف الرحمة.

ولكن " اشـوارى براسـاد " يزعم أن المسلمـين لم يقـومـوا بذلك بسـبب

احترامهم لعـقائد الآخرين، بل لأنهم اقتنعوا انه من المستحيل القـضاء على عقائد سكان البلاد المفتوحة، ويواصل نفس المؤلف تحـامله فيزعم أن القاضى كان يحكم بين المسلمـين وغيـرهم من الهندوس بنفس القـانون الذى يقضى به بين المسلمـين بعضهم ضد البعض الآخر، وتعرض الهندوس لظلم كـبير نتيجة لذلك، ويقول أن اللصوص من بعض العناصر كانت تتعرض لعـقوبة شديدة حيث كان يصدر الحكم بحرق زوجة وأطفـال السارق؟!! وأن الحكام المسلين فرضوا ضـرائب عديدة على المحاصيل المختلفة، كـما فرضوا الجزية على غير المسلمين وفـرضت مظاهر التمييز العنصرى على بعض رجالات القبائل.

ولسنا ندرى من أين أتى المؤلف بذلك كله.

ومهمـا يكن من أمر فقد أراد محـمد بن القاسم أن يخضع القبـائل المختلفة التى تسكن إقليم " برهمان أباد " حـتى يتأتى له التحرك نحو عـاصمة السند فى أمان، وكان لابد له من معرفة طباعهم وأخلاقـهم قبل أن يتجه نحوهم وقد أخبره الوزير سياكر والأمير موكه حاكم بت - وكان ضمن من أسلم من قبل - أن بعض أفراد قبـيلة الزط ومثلها قبيلة السـيابجة، وكلاهما مجـهول الأصل وتعمل الأولى بالرعى كـما يعـمل أسـراها كجند مـرتزقة فـى جيش الفـرس. ويعرف أفـرادها بالوحشـية والقسوة وبالطبـاع الشريرة، ولديهم رغبـة فى التمرد، وممارسة أعـمال القرصنة واللصوصية ومهاجمة القوافل والمـسافرين ونهب امتعتهم وسرقة أموالهم، وعلى هذا تعتمد حياتهم.

وهذا هو السـبب فى أن ملوك الهند من البـراهمة، وضـعوا قـيودا عليـهم وأمروهم بلبس الملابس الخشنة، وأن يمشوا حفاة حاسرى الرءوس، وكانو يلزمون بأن يصحـبهم كلب حتى يتعـرف الناس عليهم لم يكن يسمح لزعمـائهم بركوب الخيل فى الغالب، وكانوا يسـألون عن أية حوادث نهب أو سرقة تقع فى الطريق، وإذا ثبتت السرقـة قضى على المتلبس وعلى أفراد أسرته بالحرق، وكـان على قبيلة

الزط هذه ارشاد المسافرين فى الصحارى وبين مدن السند وجمع مايلزم المطابخ الملكية من أحطاب.

ولم يكن أمام "محمد بن القاسم" بد من معاملتهم بنفس الطريقة، لتستقر الأوضاع فى البلاد، ومع ذلك فقد أراد تهذيب أخلاقهم فعهد إليهم بالكثير من الخدمات، وتأثر بعضهم بسلوك المسلمين وقيم الدين فدخلوا فى الإسلام، فألحق ابن القاسم العديدين منهم فى الجيش الاسلامى وحتى لم يصبحوا مسلمين تهذب سلوكهم بسبب معاشرتهم للمسلمين ولم يبق على أصله من التوحش إلا من عاشوا منعزلين فى مواطنهم القبلية.

أما قبيلتنا السمه والسهنة Sammas and Sahnas فكانتا على العكس من بعض أفراد قبيلة الزط Jats، فقد استقبلت الأولى محمد بن القاسم بالطبل والمزامير والرقصات القبلية تعبيرا عن قبولهم حكم المسلمين وترحيبهم به، فحمد القائد المسلم موقفهم، وعين أحد ساسة العرب ودهاتهم وهو "خريم بن عمرو المدنى" حاكما عليهم، فمنحهم عشرين دينارا ذهبية هدية لهم، ورضى أولئك حكم المسلمين وفعلت قبيلة سهنة نفس الشيء، فقد احتفى زعماؤها بالمسلمين ورحبوا بهم، وقابلوهم مكشوفى الرؤوس حفاة الأقدام، فرضى ابن القاسم منهم بذلك وأمنهم وحدد الخراج على أراضيهم، فقد كانو مشتغلين بالزراعة، كما استعان بمرشدين منهم ليدلوا المسلمين على الطرق فى المناطق الصحراوية من برهمان اباد إلى العاصمة "أرور" وقد أسلم كثير من أفراد هذه القبيلة وحسن إسلامهم.

بعد ذلك بقى محمد بن القاسم فترة فى برهمان آباد، ينظم أمورها ويعين على كل منطقة حاكم يناسبها من حيث الخبرة والمعرفة بأحوالها، وترك المسائل المالية بيد أربعة من كبار الاعيان وتجار البلاد الأصليين، وأجرى بعض التنقلات بين القواد ونوابهم فى مناطق السند لدواع اجتماعية وسياسية، وكذلك وزع أفراد

القبائل العربية وأسكنهم فى مناطق عدة ودخلت الآلاف المؤلفة دين الله عن رضى واختيار.

كل هذه الجهود علم بها الحجاج من خلال تقرير مفصل جاء من ابن القاسم، وقد أثنى الحجاج عليه، وأمره بالسير نحو مدينتى أرور تم الملتان، لأن كلا منهما تمثل قاعدة قوية لملوك السندويه وحصون عسكرية هامة وخزائن وكنوز مدفونة فوق ما لهما من أهميته استراتيجية.

وفى محرم سنة ٩٤هـ تحرك ابن القاسم وفتح مدينتين قريبتين من العاصمة فى الطريق إليها – هما منهل وهراور، وكان فتحهما عن طريق الصلح، كما فتح مدينتين صغيرتين هما " بسمة " و" ساوندرى "، وفرضت الجزية على السكان من البوذيين بعد منحهم الآمان، واشترط عليهم ضيافة المسلمين عندما يمرون بمناطقهم، وقد دخل هؤلاء السكان فى الإسلام بعد ذلك، ونعموا بعدل وحماية الولاة المسلمين.

بعد هذا أتجه محمد بن القاسم نحو آلور (أرور) عاصمة بلاد السند.

وعسكر على بعد ميل من قلعتها الحصينة، وأقام شهرا للراحة والاستعداد، وكان يحكم العاصمة أحد أبناء " داهر " الملك القتيل، وقد اهتم بتحصين المدينة بقوة ورغب فى المقاومة، وأوهم الناس بأن أباه قد اختفى وأنه سيرجع عما فريب بجند وسلاح كثير، وبالفعل بدأت الحرب واستمرت أياما، ولكن أبا القاسم قطن إلى حيلة وفى إرسال أرملة داهر التى كان قد أسرها من قبل وبنى بها، ومعها بعض الزعماء الآخرين، وقد أبانت عن هويتها، وبينت لأعداء المسلمين أن زوجها قد قتل، وأن قادته قد استسلموا، وأنه يحسن بهم الاستسلام كذلك، والأولى بهم أن يعيشوا مع المسلمين فى أمان.

وقد رفض الناس تصديق المرأة أول الأمر، ولكنهم تأكدوا من صدق روايتها بعد فترة، واطمأنوا إلى عدل وسماحة المسلمين، ولذلك قرروا تسليم المدينة بينما

تمكن حاكمهم أو ملكهم من الهرب فى جنح الظلام واتجه ناحية مدينة " جيبور " قرب الحدود الهندية مثلما فعل أخوه وغيره من قبل، وقد فتحت أبواب المدينة ودخلها المسلمون دون قتال.

وقد شاهد ابن القاسم " بيت الصمم "بالعاصمة، وهو معبد بوذى كبير، يضم تمثالا رخاميا مكللا بالياقوت والجواهر، يقوم على خدمته كبار رجال الدين فلم يعرض له بأذى ولم يسمع سدنته كلمة نابية، مع يقينه بأنه لا يزيد عن أن يكون صنما لا يضر ولا ينفع.

وكالعادة نظم ابن القاسم أمور المدينة وعين عليها حاكما عليها، وبنى بها مسجدا جامعا، وأسند أمور القضاء والخطابة فيها للشيخ موسى بن يعقوب الثقفى، أحد كبار علماء الإسلام، ووضع عليها الخراج، وطلب من سكانها أن يتعاونوا جميعا على ما فيه خيرهم ورفاهيتهم، وقد تأثر سكانها من البوذيين خاصة بما رأوه من حسن معاملة المسلمين فدخلوا دين الله.

بعد هذا توجه محمد بن القاسم نحو مدينة " باتية " القيمة على الشاطئ الجنوبى لنهر " بياس " وكانت تحت حكم بن عم للملك " داهر " أسمه ككسا Kaksa وكان قد اشترك معه فى معركته الأخيرة، ثم عاد إلى مقر حكمه بعد هزيمة الملك، ولما علم بمقدم بن القاسم أرسل له هدايا ورهائن عرض طاعته، فقبل القائد المسلم عرضه، وزاد فعينه مستشارا له، وفوض إليه كل الأمور المالية ومنحه خاتم خزينة المنطقة، وقدمه على غيرة من القادة، وأما الرجل فقد أخلص النصح لمحمد بن القاسم فاعتمد عليه الأخير كثيرا فى تنفيذ مشروعاته فيما بعد، وأعتنق الرجل الإسلام وحمل لقب " المستشار المبارك ".

وكان على محمد بن القاسم أن يفتح مدينة اسكلنده (اسكندراه) قبل فتح الملتان، وكانت مدينة حصينة للغاية ومهيأة للقتال، وبالفعل خرج أهلها لحرب المسلمين واشتدت المعركة بين الطرفين، ثم اضطر أهل " اسكلنده " إلى الاعتصام داخل قلعته، فقذفهم المسلمون بنيران المنجنيقات ورموهم بالسهام النارية واستمر

الحال هكذا لمدة أيام سبعة اضطر بعدها حاكم المدينة للهرب واحتمى فى حصن اسمه " حصن سكه " على الشاطئ الجنوبى لنهر " راوى " بالقرب من الملتان، وأتيح لابن القاسم أن يدخل المدينة، وأن تدور معركة بينه وبين جنود السند قتل فيها الكثيرون، ووقع عدد كبير فى أسر المسلمين، واستشهد من المسلمين ٢٥ كما استشهد من جنودهم مائتان وخمسون، ثم منح ابن القاسم أمانا للتجار والصناع والزراع وعامة الناس وولى حاكما على المدينة. استشهد فيه عشرون من قادة المسلمين، ومائتان وخمسة عشر فارسا من أهل الشام الشىء الذى آلم ابن القاسم وجعله يقسم ليهدمن القلعة على من فيها، وقد هرب زعيمها السندى، وعبر نهر " راوى " نحو الضفة الشمالية وانضم إلى حاكم الملتان، فتقدم ابن القاسم نحو القلعة واستولى عليها وعلى سكانها من الجنود وأمر بهدمها، وقتل المقاتلين بها، وجدير بالذكر أن هذه هى المرة الأولى والأخيرة التى حدث فيها هذا الأمر أو أتخذ فيها ذلك الإجراء.

فتح الملتان:

الآن أصبح الطريق ممهدا أمام القوات الإسلامية لفتح مدينة الملتان ونواحيها فى إقليم البنجاب الذى كان يكون جزءا من مملكة " داهر".

زحف جيش المسلمين فى أعداد غفيرة وصلت إلى خمسين ألفا من الجنود والفرسان عشرهم فقط من الجيش الأصلى الفاتح، ومعظمهم ممن أنضم إلى المسلمين بعد نجاحهم فى المعارك السابقة، وقد اتجه الجميع نحو مدينة " الملتان " عاصمة البنجاب، وهناك حدث قتال بينهم وبين حاكمها ومن فر إليه من زعماء السند وأمراءهم راح الكثيرون ضحية له، ثم استخدم المسلمون المنجنيقات والقذائف النارية لمدة شهرين على فترات متقطعة، وواجهوا مشكلة نقص المواد الغذائية واضطروا لأكل الميتة التى ارتفعت أثمانها، ومع ذلك فقد خشى زعيم وقائد الجيش الملتانى من العواقب، فعبر الحدود السندية ووصلا إلى منطقة كشمير، ولم تكن قد فتحت بعد.

وأخيرا تمكن المسلمون من هدم أسوار المدينة بعد رميها بقذائف والمنجنيقات ودخلوها وقتلوا جندها، فقتلوا منهم ٦٠٠٠ جندى وأسروا الكثيرين ومنح بن القاسم الأمان للتجار والصناع والزراع على أساس أنهم لم يشتركوا فى القتال، وفرد على السكان جزءا من خسائر ونفقات فتح المدينة بلغت قيمته ستين ألف درهم غير ما فرض عليهم من الجزية والخراج، وتلك هى المرة الأولى التى يكلف فيها السكان الأصليون بتحمل قسم من نفقات.

وهناك زاوية أخرى تتعلق باستسلام أهل الملتان تقول أن هؤلاء قاتلوا المسلمين بضراوة، ولكن المسلمين حاصروا المدينة أياما شديدة لاقوا خلالها الأهوال حتى نفد زادهم واضطروا لأكل الحمير، ثم جاء رجل مستأمن فدلهم على مدخل الماء الذى يشرب منه أهل المدينة وكان ذلك الماء يأتى من نهر اسمه "بسمه" فيصير فى مجتمع له يشبه البركة أو الحوض داخل المدينة، عندئذ أمر ابن القاسم بتغوير (بتعميق) مجرى ذلك الماء وإقامة خزان يتجمع فيه كيلا يصل إلى سكان المدينة فعطش المحاصرون بشدة ونزلوا - لهذا - على حكم ابن القاسم فقتل من رفضوا الاستسلام من حملة السلاح، وحصل المسلمون على ذهب ومغانم كثيرة جمعت فى بيت حجمه عشرة أذرع فى ثمانية يلقى إليه من كوة فى وسطه وهذا هو السر وراء تسمية الملتان باسم " بيت أو ثغر الذهب ".

ومن طريف ما يروى أن رجلا برهاميا أتى محمد بن القاسم وذكر له أن أحد حكام الملتان فى القديم بنى حوضا شرقى المدينة مساحته مئة متر، وبنى فى وسطه بيتا لصنم يعبد، مساحة ذلك البيت خمسين مترا مربعا، والصنم نفسه عبارة عن تمثال من الذهب الخالص يمثل رجل له عينان من الياقوت الأحمر، وأضاف الرجل أن هناك حجرا عند موضع الصنم تحته كنز، فدخل بن القاسم المكان وأمر برفع التمثال فوجد تحته ثلاثة عشر ألف ومائتين منا من الذهب، أضيف إلى ما حصل عليه المسلمون من أموال ومجوهرات.

وتذكر بعض المصادر العربية أن صنم الملتان هذا كانت تقدم له النذور، وكان طائفة البـراهمة فى السند والهند يقـصدونه للحج، فـيطوفون به ويحلقـون لحاهم ورؤوسهم عنده ويزعمون أن ذلك الصنم هـو النبى أيوب وكان على صورة إنسان كبير مـتربع طوله مائة ذراع، يلبس جلدا أحمرا لا يظهر منـه إلا عينين عبارة عن جوهرتين وعلى رأسه تاج أو إكليل ذهب مرتفع على كرسى تحيط بيديه قبة عظمى وحوله بيوت سندته البالغين ستة آلاف.

وكان الصنم نفسه بعد فتح الملتـان ورقة رابحة فى أيدى المسلمين من الناحية السـياسـية، فكان كلمـا رغب ملك هندى فى الهـجوم على هذه المنطقـة، هدده المسلمون بكسـر ذلك الصنم، فيرجع من حيث أتى إجـلالا لهذا التمثـال المقدس الذى لا يقيم العـسكر فى بلده لما له من قداسة. فـالملتان كمـا رأينا لم تكن مدينة عادية، بل كـانت عاصمة كـبرى يحج الناس إليهـا، ولهذا فقد فـتحت عنوة لأن المقاومة فيها كانت مقاومة البوذية المتمسكة بتقاليدها وأمجادها.

ومهـما يكن من أمر فقـد اتبع ابن القاسم فى هذه المدينة ما أتبـعه فى المدن الأخرى من حيث التنظيمات الماليـة والإدارية والعسكرية، فعين الحكام على كورها المختلفـة، وترك بها حـامية من الجنود وبنى بهـا مسـجدا جامـعا، وأخذ العـهود والموايثق على أعيان المدينة بأن يعملوا على أمر واستقرار ورفاهية شعبها، ثم أرسل ما حصل عليـه من مغانم وأموال على متن سـفن فى حراسة مسلحـة إلى الحجاج عن طريق مينـاء الديبل، مع رسالة تفصـيلية تشـرح ما تم من فتح الملتـان وتنظيم أمورها.

وكان والى العراق والإمارات الشرقية قد كتب لابن القاسم وهو بمدينة الملتان يقول:

" إنى قد كتبت إلى أمير المؤمنين الوليد أضـمن له رد ضعف نظير ما أنفقته من بيت المال فأخرجنى، من ضمانى ".

وكانت نفقات جيش فتح السند والملتان قد وصلت إلى ٦٠ ألف ألف (٦٠ مليون) درهم، ولما أحصى الحجاج ما وصل إليه من القائد الفاتح وجده ١٢٠ ألف ألف (١٢٠ مليون) درهم، فقال: شفينا غيظنا، وأدركنا ثأرنا وزدنا ستين ألف ألف (٦٠ مليون) ورأس داهر " كل ذلك دون أن يغرم الأهالى شيئا أو تفرض عليهم ضرائب جديدة.

يعلق بعض الباحثين على ذلك فيقول:

إنه ليس مستغربا أن يحرص الحجاج على جمع الثروة ما أمكنه، مثله فى ذلك مثل أى فاتح أخر، وفى هذه الحالة خاصة فإن والى العراق كان عليه أن يحترم وعده للخليفة، برد نفقات هذه الحملة لخزينة الدولة، وكان ما منحه من حرية العبادة كفيلا بجلب الجزية والضرائب الأخرى، ولهذا فإن الحياة الدينية فى الهند بقيت على نهجها القديم تقريبا، بل إن معابد البراهمة أعيد بنائها، وأصبحت العادات القديمة مسموحا بها، وقد وثق المسلمون فى الكثيرين من غير المسلمين، وعهدوا إليهم بالأعمال الإدارية، وأصدر إليهم بن القاسم تعليماته بأن يتعاملوا مع الشعب فى احترام وأمان وأن يكونوا صلة طيبة بينه وبين الحاكم، وعليهم تحديد مقدار الجزية وفقا لمقدرة الشخص، ولتكن من الغنى ٤٨ درهما ومن متوسطى الحال ٢٤ درهما، و١٢ درهما من الطبقات الدنيا، أما النظام الإدارى فقد استمر معمولا به دون تغيير. كما سيأتى.

وكان فى نية بن القاسم أن يواصل مسيرته نحو بلاد " كشمير " موطن البقية الباقية من أمراء السند وأعوانهم من المتمردين، وبؤرة الخطر بالنسبة للبلاد حديثة العهد بالإسلام، وربما رغب فى نشر الدعوة الإسلامية فى الهند أيضا، لولا خبر وصله، وكان سببا فى قلب مخططاته كلها، ألا وهو خبر وفاة الحجاج سنة ٩٥ هـ. الشىء الذى جعله يرجع إلى العاصمة " آرور " لمتابعة الأحداث فى ظل الظروف الجديدة من هناك، خاصة وقد تلقى أمرا من الخليفة الوليد بن الوليد الملك

بأن يوقف تقدمه، لأن الخليفة كان يعتمد فى هذا الجانب على الحجاج وما كان يقوم به من متابعة واعية.

ومع ذلك فإن الأوضاع الجديدة لم تمنع ابن القاسم من العناية بالمناطق المفتوحة والنظر فيما يصلحها، ولم تحل وفاة الحجاج بينه وبين أداء مهمته، فبعد أيام قضاها فى الراحه واستقبال وفود العزاء، أرسل وحدا من قواده لإخضاع مدينة " البيلمان " وهى من المدن الصغيرة التابعة لإقليم "أرور" فاستسلمت بدون قتال ثم أرسل أخر إلى مدينة صغيرة بنفس المنطقة اسمها "سرست" حيث يقيم قبائل " الميد " المعروفين بقطع الطرق البرية ونهب السفن، فتعهد هؤلاء بالطاعة والعمل على سلامة الطرق البرية، وقبل المسلمون ذلك منهم.

فتح الكرج:

ثم قام ابن القاسم بحملة على الكيرج (الكورج) على الحدود السندية الهندية. وكان يحكمها " داهر " أحد أقارب الملك " داهر " وقد خرج على رأس جيش كثيف لمقاتلة المسلمين، ولكنه قتل وانهزم جيشه، وأمر ابن القاسم بقتل المسلحين وضرب الرق على الباقين، وقال على الباقين، وقال أحد الشعراء فى قتل " دوهر " :

نحن قتلنا داهرا ودوهرا والخيل تردى منسرا فمنسرا

وكان الأمير " جيسية " قد فر إلى الكرج أخر الأمر، ثم لجأ إلى كشمير بعد أن دب الخلاف بينه وبين حاكمها " دوهر "، وبقى هناك يتحين الفرص، وقد تمكن من العودة إلى السند واستولى على إقليم " برهمناباد " وحكمه عدة سنوات بعد مقتل محمد بن القاسم، وظل يتولى أمر ذلك الإقليم إلى أن تم إخراجه منه والقضاء عليه سنة ١١١هـ = ٧٢٩ م.

وبفتح المسلمين لإقليم الكرج، أصبحت لهم السيادة على المناطق الواسعة بين الملتان وبلاد كشمير، وقد توجه بن القاسم إلى كشمير وعين عليها حاكما

وترك بها حامية عسكرية ورغب فى مطاردة الأمير جيسية ومحمد العلافى وبعض أمراء السند الذين لجأوا إلى هذه البلاد، وكونوا بها جبهة قوية تعادى الدولة الإسلامية، ولكنه قرر صرف النظر عن منطقة كشمير مؤقتا حتى يتم له فتح إقليم " قنوج " الذى يتبع السند سياسيا ويقع على حدودها مع بلاد كشمير.

فتح قنوج:

ذلك أنه عندما كان قائد المسلمين فى مدينة الكيرج أرسل من هناك جيشا من عشرة آلاف فارس يقوده أبى حكيم الشيبانى إلى مدينة قنوج Kanyj فى أقصى حدود الملتان – لفتحها ودعوة أميرها إلى قبول الإسلام أو الدخول فى طاعة المسلمين ودفع الجزية، ولما وصل الجيش الإسلامى إلى موضع يقال له " أودهاير " بالقرب من العاصمة أرسل قائده مبعوثا إلى الأمير يبلغه مضمون رسالة بن القاسم إليه ويبلغه بأن كل بلاد السند وحكامها قد خضعوا للحكم الإسلامى، وأن بعضهم قد أسلم وبعضهم قد وافق على دفع الجزية، ولكن حاكم " قنوج " أبى الاستسلام بزعم أن آبائه وأجداده يحكمون هذه البلاد منذ حوالى ألف وستمائة سنة وأن علاقته بجيرانه قوية وأنه يرفض الخضوع للغير، إزاء هذا الموقف لم يكن بد من القتال.

وقد تحرك محمد بن القاسم بنفسه إلى الكبرج ووصل إلى " أودهاير " وعزم على فتحها وأستعد لدخولها، وبينما هو على أتم الاستعداد لذلك كخطوة أولى نحو الوصول إلى كشمير وإتمام فتح كل السند والهند، وصله أمر الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك بعزله عن بلاد السند شخصية، بل والقاء القبض عليه وإرساله مصفدا إلى بلاد العراق فلم يتمكن بسبب ذلك من فتح " قنوج " لذلك لم يذكر " البلازرى " لذلك عنها شيئا، واعتبر أن " الكرج " هى آخر مدينة فتحها ابن القاسم على الحدود السندية الهندية. وقد وصل الإسلام إلى " قنوج " بعد ذلك، يشير إلى ذلك المسعودى – الذى زار الهند فى مطلع القرن الرابع الهجرى – حين يقول: " وليس من ملوك السند والهند من يعز المسلمين فى ملكه

مثل البلهرى (أمير قنوج) فالإسلام فى ملكه عزيز مصون وله مساجد مبنية وجوامع معمورة للصلوات الخمس، ويملك الملك منهم الأربعين سنة والخمسين فصاعدا، وأهل مملكته يزعمون أنه إنما طالت أعمار ملوكهم لسنة العدل وإكرام المسلمين.

نهاية ابن القاسم:

ونعود مرة أخرى لنتابع تطور الأحداث ونتعرف على ما جرى لابن القاسم.

أشرنا إلى أن الحجاج مات سنة ٩٥هـ=٧١٣م بعد أن حكم العراق والولايات الشرقية باسم الدولة الأموية حوالى عشرين عاما، وبعد وفاته بستة أشهر توفى الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦هـ =٧١٤م وتولى الأمر من بعده أخوه سليمان، فولى على العراق والأمارات الشرقية واحدا من أشد أعداء الحجاج وهو صالح بن عبد الرحمن، وكل هذا كان كارثة بالنسبة لمحمد بن القاسم أثرت على جهوده فى شبه القارة الهندية مثلما كان الحال بالنسبة لآخرين فى مناطق الفتح الإسلامى الأخرى.

ولنوجز هنا مبررات ما حدث:

أراد الوليد بن عبد الملك أثناء خلافته نقل ولاية ما لعهد من أخيه سليمان ابن عبد الملك إلى ابنه، وقد أيد الحجاج فكرة الخليفة عن عزل سليمان وحرمانه، واستطاع أن يحصل على موافقة الولاة والقواد فى المناطق الشرقية التابعة له، وابن القاسم واحد منهم، ولم يكن فى وسعه إلا الموافقة، لأنه لم يزد عن أن يكون تابعا وأحد رجالات الحجاج، وما كان يعنيه بالدرجة الأولى هو أن يتفرع لمهمته ويتمكن من تبليغ رسالة الإسلام للسكان فى منطقة شبه القارة الهندية، وقد شاءت إرادة الله أن يموت الحجاج والخليفة الوليد قبل أن يتم لهما ما أراد من نقل ولاية العهد إلى ابن الخليفة وحجبها عن أخيه سليمان، وقد تولى سليمان رسميا أمر الدولة، وكان أول شىء فعله هو عزل الولاة والقواد الذين عينهم الوليد والحجاج،

وتسليط والى العراق الجديد ضد من ينتمون إلى الحجاج بصلة بصفة خاصة لقد كان عليه أن يلقى بهم فى غياهب السجون ويعذبهم أشد العذاب برغم ما قدموه للدولة من خدمات.

ينقل الطبرى - فى نفس حوادث سنة ٩١٦هـ - عن الهلواث الكلبى قال: كنا بالهند مع محمد بن القاسم فقتل الله " داهرا " وجاءنا كتاب من الحجاج أن أخلعوا سليمان، فلما ولى سليمان جاءنا كتاب سليمان أن ازرعوا واحرثوا فلا شأم، فلم نزل بتلك البلاد حتى قام عمر بن عبد العزيز فأقفلنا.

لقد كان الوالى الجديد موتورا من الحجاج، لأنه قتل أخاه آدم ابن عبد الرحمن بسبب إيمانه بمبادىء وآراء الخوارج، فأراد صالح بن عبد الرحمن الانتقام من الحجاج فى شخص قادته وأتباعه خاصة صهره وابن أخيه محمد بن القاسم، وقد ولى على بلاد السند يزيد بن أبى كبشة السكسى، فقام هذا بإلقاء القبض على ابن القاسم بناء على أمر الخليفة ووالية، وصفده فى الأغلال وبعث به ليسجنه صالح بن عبد الرحمن فى مدينة واسط، فتمثل ابن القاسم بقول القائل:

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد

وكان ابن القاسم قد استولى على قلوب الناس فى شبه القارة مسلمين وغير مسلمين، لما تميز به من خلق قويم وسلوك ممتاز، وقد نصحه البعض بالا يرحل إلى بلاد العراق، ولكنه أبى، لأنه لا يستطيع مخالفة أمر الخليفة الواجبة طاعته، وقد يشفع له عنده ما قدمه من خدمات جليلة للدولة الأموية ولدين الله، ولكن والى العراق غدر به وألقاه فى غياهب السجن المظلم الرطب مكبلا بالحديد، فتألم ابن القاسم وأثر فى نفسه أن يلقى جزاء "سنمار" وقد عبر عن ذلك فى شعر قاله أثناء وجوده بالسجن منه قوله:

فلئن ثويت بواسط وبأرضها رهن الحديد مكبلا مغلولا

فلرب قينة فارس قد رعتها ولرب قرن قد تركت فتيلا

ومنه:

لو كنت أجـمعت الفرار لوطئـت إناث أعـدت للوغـى وذكـــور

وما دخلت خيل السكاسك أرضنا ولا كان من عـــك على أمـــير

ولا كنـت للعـــبد المزونى تابعـا فيـــالك دهـــر بالكـــرام عـــثور

وقد واصل الوالى تعذيبه، ضمن رجال من آل أبى عقيل، إلى أن قتله تحت وطأة التعذيب الشنيع، ثم بعث برأسه إلى دمشق.

وكما ودعـته جموع أهل السند، شاعرة بـالأسف الشديد، لمغادرته بلادهم عائدا إلى العراق، فـإن دموعهم تساقطت بغـزارة عندما وصل إليهم خبـر مقتله، وبكوا فيه الرجولـة والشهامة والخلق الإسلامى الأصيل والشبـاب المتألق، وتخليدا لذكراه أقاموا له تمثالا فى مدينة الكبرج، لما قدمه من خدمات جليلة لهذا البلد.

وإن المرء ليعجب ما ينقضى له عجب، كـيف تنتهى حياة ذلك الشاب بهذه الصورة المريرة، وهو الذى فتح كل بلاد السند، ونشر الإسلام فى كافة أرجائها فى فترة قياسية لم تتجاوز السنوات الثلاث ؟ كيف يواجه محمد بن القاسم هذا المصير المؤلم ويجزى كل ذلك الجزاء المهين؟!!!

لقد تضاءلت أمام أعماله الحربية والسياسة عظمة الاسكندر وشهرته، إذ بينما عجز الاسكندر قبل ألف عام عن الاستيلاء على قسم ضئيل من الهند، كان سكانه أقل من ربع السكان زمن ابن القاسـم، استطاع هذا الفتى أن يخضـعها ويلحقـها بالإمبراطورية الإسلامـية من غير كبير عناء وقـد قال مؤرخ انجليزى " لو أراد ابن القاسم أن يستمر بفتوحاته حتى الصـين لما عاقه عائق "ولم يتجاوز أحد من الغزاة فتوحاته إلى أيام الفزنويين "لقد كان واحدا من عظماء الرجال فى كل العصور".

إن رجلا قـدم عشر معـشار ما قدم ابن القـاسم لابد وأن يكرم ويمنح خلع التشريف والإكـبار ويرتفع إلى أعلى عليين، ولكن المؤلم حقـا أن يسجن ويعذب لدرجة إزهاق الروح وهو الذى مهـد السبيل أمام الدعوة الإسلاميـة، وحملها فى

إخلاص وتفان إلى الناس فى شبه القارة الهندية، تماما مثلما حدث مع من عرف القارة الأوربية بالإسلام ونشرة فى نواحى الأندلس، أعنى القائد المسلم موسى بن نصير بل يقال إن ابن القاسم وضع فى ر أديم بقرة، ثم خيط عليه الأديم وحمل إلى دمشق، وأن روحه فاضت فى الطريق.

إن نهاية الأبطال ما كان ينبغى أن تكون هكذا دون جريرة أو ذنب اللهم إلا حب الإسلام والإخلاص له والتفانى فى سبيله، والولاء لأصحاب السلطان الشرعى من خلفاء بنى أمية.

ومهما يكن من أمر فقد توقفت الفتوحات فى جبهة السند بمجرد مغادرة ابن القاسم للبلاد، وانكمش المسلمون فى المناطق التى تم فتحها من قبل وتركت الأوضاع السياسية السيئة فى عاصمة الخلافة تأثيرها على الاستقرار والأمن فى شبه القارة الهندية فقامت الثورات والفتن فى بعض المناطق التى خضعت للمسلمين، وحاول بعض أمراء السند الذين كانوا قد فروا إلى كشمير وغيرها العودة إلى البلاد، ونجح بعضهم فى استعادة سلطانه ونفوذه، مستفيدا من الاضطرابات الداخلية فى العالم الإسلامى، فتمكن جيسية ابن داهر مثلا من العودة إلى برهمان آباد حسبما يرى البعض.

بل إنه بعد موت ابن القاسم، لم يبق تحت سيطرة المسلمين إلا من ديبال بور Debalpur إلى بحر السلت " الملح " Saltsea.

وهذا سمح لباحث مثل " إشوارى براصاد " أن يقول:

أنه كان من المستحيل أن يجد المسلمون حكما مستقرا فى الهند، ذلك أن الملوك كانوا لا يزالون يسيطرون على ممالك هامة فى الشمال والشرق ولم يكن هؤلاء مستعدين لترك بوصة واحدة من الأرض لأى أجنبى يحاول غزو أراضيهم، ولهذا فإن المحافظات المختلفة بدأت تترك الإسلام تدريجيا، وكانت محافظة السند تنقسم إلى عدة دول تعتبر مستقلة من الناحية العملية.

كذلك ساعد بروز العصبية القبلية، وانشغال العرب فى الخلاف فيما بينهم على، توقف حركة الفتح الإسلامى بتلك المناطق، مثلما حدث من خلاف وعصبية فى مناطق الدول الإسلامية الأخرى.

كذلك دخل العرب البلاد من اتجاه خاطىء، فالسند لم تمنحهم المصادر اللازمة لفتح بقية بلاد الهند أضف إلى ذلك أن ولايات السند كانت مجدبة وضعيفة الخراج نسبيا إذا قورنت بغيرها، وكانت لا تزال تحيط بها من الشمال والشرق إمارات قوية يحكمها الهنادكة، كذلك تمكن رجال الفرق الإسلامية من خوارج وشيعة وقرامطة وإسماعيلية من الوصول إلى تلك البلاد - فيما بعد - لهذا كله انكمشت أملاك المسلمين، ولم يبق لهم إلا الملتان والمنصورة. . . .ولا بد من الإشارة إلى أن الفتح العربى للسند لم يكن عسكريا فحسب، بل - كما حدث فى الجبهات الأخرى - تنقلت العشائر العربية إلى هناك، وحمل العرب إلى البلاد نفس أسلوبهم فى الحياة ونفس نزاعهم القبلى التقليدى، كما انتشرت الثقافة العربية من المدن التى ستؤسس فيما بعد - مما ساعد على نشر العربية والإسلام - بل هاجرت إلى الهند نفس الصور الفكرية التى طبعت العالم الإسلامى فى القرن الأول الهجرى كما انتقلت إليها فرق ودعايات الخوارج والشيعة كما أشرنا أنفا.

والآن نحاول التعرف على الولاة الذين وفدوا إلى هذه المنطقة فى عهد الدولة الأموية.

***